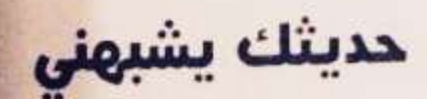
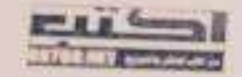

يامي أحمد
رواية
الطبعة
5
حديثك
يُشبهني
دار اكتب


حديثك يشبهني

حديثك يشبهني

يامي أحمد

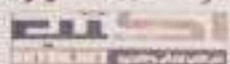
رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

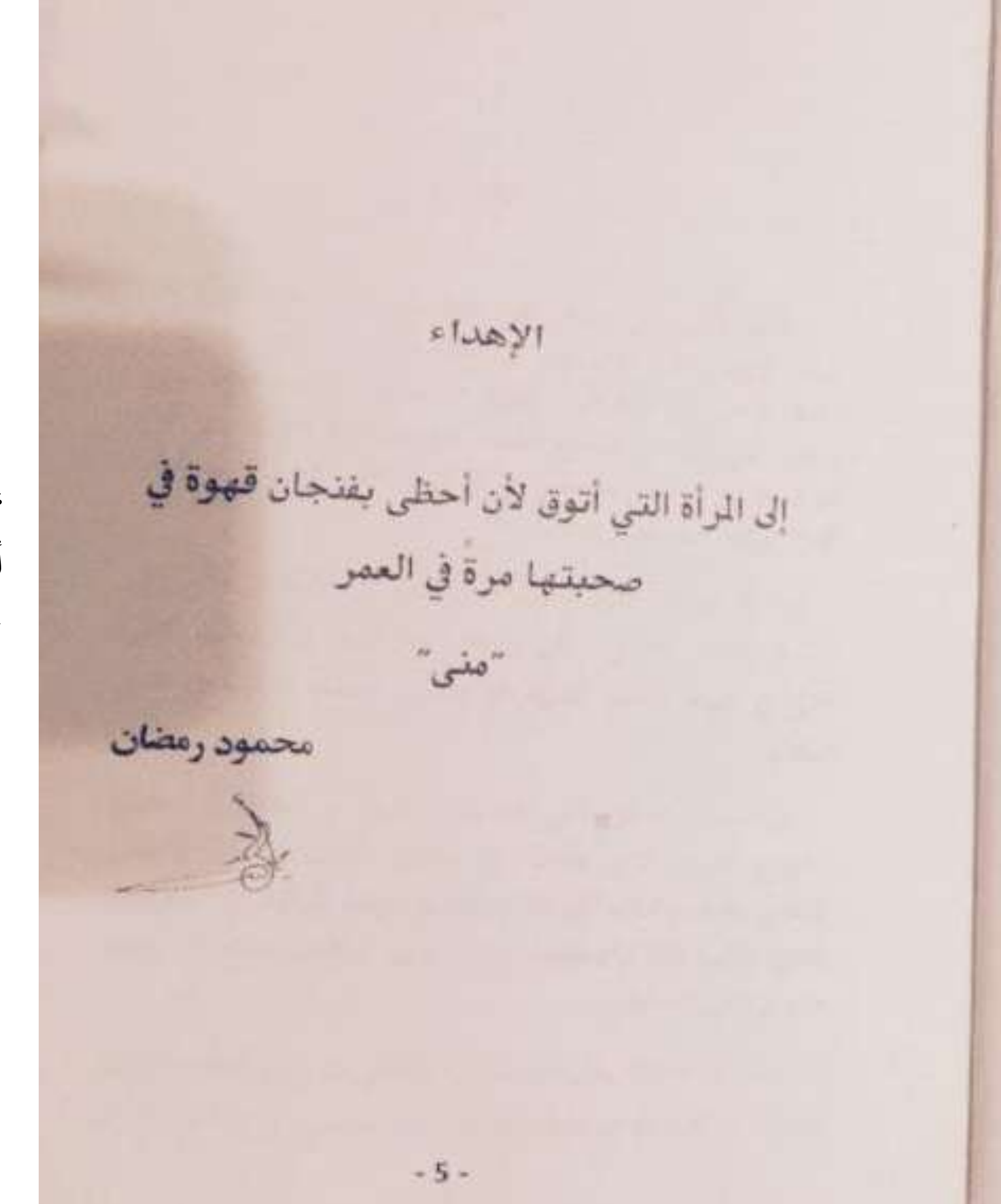
حديثك يشبهني
يامي أحمد
تصميم الغلاف: محمد عيد
تدقيق لغوي: د. إيمان الدواخلي
رقم الإيداع: 2014/25088
I.S.B.N: 978-977-488-331-6

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.
المدير العام: يحيى هاشم
هاتف: 01144552557 - 01147633268
E - mail daroktob1@yahoo.com
Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ،يناير 2015م
الطبعة الثانية ، يناير 2015 م
الطبعة الثالثة ،يناير 2015 م
الطبعة الرابعة . يناير 2015م



الإهداء

إلى المرأة التي أتوق لأن أحظى بفنجان قهوة في
صحبتها مرة في العمر

"منى"

محمود رمضان

ريم

وصلتُ وشيء من وميض قلبي يتناثر مع كل خطوة أطرق بها بساط الأرض، عند أول طور في نطفة الغروب.. ومع انسحاب الخيط الأخير من الإشراق، أنفاسي تسابقني، وصوت لهاثها يعلو ويعلو، حتى صم عني ضجيج المدينة. صوب المكتبة اتجهت.. لم أكن أعرف أن مجرى حياتي سينحدر إلى جرف لا أعلم كيف أقاوم تياره. كنت جميلة، كنت أشعر بذلك!

وما إن يمر من خلالي الحب، حتى أشعر أني اكتملت كالبدر في صورة الشاعر الجاهلي، كأني يراعة أشابه القمر في وميضه، أقامر الليل في حنينه، وأغدو المضيئة الوحيدة في العتمة، كالماسة في جنح الظلام.

في السيارة، تنتظرني أمي عند باب المكتبة. في العادة، لا أستطيع الخروج بمفردي لأي مكان. في صغري، كانت جليسة الأطفال ترافقني دائما، وعندما كبرت، تولت أمي مهمة المراقبة. لا أدرى لماذا يعقتني أهلي بهذا الأسلوب، ويحاصرونني وكأنهم سياجات متنقلة تأسرني على الدوام!

أتساءل أحيانًا: هل أنا أعيش مع أهلي في زمن الإغريق؟ وهل أقدارنا تتلاعب بها نبوءات العرافين؟ هل شاهدني أبي في أحد أحلامه

أوديب، الذي ينقض على والده ويقتله، ثم يستولي على الحكم؟ هل نصح أحدُ العرافين أبي بأن يضعني تحت المراقبة الدائمة، كي لا أنقلب على عرشه؟ في بلادي، الحياة متلازمة انقلابات.

رغم ذلك، كان كل شيء متوفرًا لدي، كل شيء من وجاهة ومال، أسبح في رغد الحياة، وأقفز من متعة لأخرى، وكل متعة أرتكبها تسير تحت ضوء أبي، الذي يظلل حتى ظلي!

صرت أمام الباب الزجاجي للمكتبة، يُحاورني خوفٌ على المرآة بوجه ساخر، ويتركني خجليٌ أركض بعيدًا كمتسكع هارب من يدِ القدر..

تسمرت حين لمحته..مر من أمامي، توقف.. عاد خطوة للخلف، وابتسم.. لم تكن ابتسامته لي مجرد ابتسامة عابرة، بل كانت اللحظة الأكثر صخبًا في حياتي، شعرت من خلالها أني أمسكت كل القيود التي أطبقت على أنفاسي، وفجرتها.. فتناثرت حولي في الهواء نورًا وحرية.. كأني أصفد شياطين الخوف التي اعترضتني، وألقي بلعنتها بعيدًا بعيدًا..

أنا مأخوذةٌ بكل ما هو فلسطيني.. أنا وأختي ليلى ارتباطنا بفلسطين فطريٌ. درستُ تاريخ القضية الفلسطينية، برموزها وأوجاعها وانتصاراتها، كما لو أني ابنة حيفا.. أصبحتُ أعرف عن فلسطين أكثر من صديقاتي الفلسطينيات المغتربات.. فأنا، إذا ما قرأت قصيدةً أو شيئًا من الأدب الفلسطيني، أشعر [illegible]ة كأني أتناول الشكولاتة.. حين أنتهي من قراءة كتابٍ لدرويش، لا إراديًا

أحتضنه. ثم آخذ نفسًا طويلًا وأطلقه زفيرا، كأني أنثرُ بذورًا في ساحة باريسية تعجُ بالعصافير والحمام، فيطيرُ الحمام ويحط قربي ويقول لي "أنت مني"..

أنا اعتدت ارتياد المكتبة بشكل دائم. أصابتني صديقاتي الفلسطينيات بعدوى القراءة، وشغف الأوراق، وتكدس الأقلام. لم يكن أحد من عائلتي يشاركني هذه الاهتمامات، غير أختي ليلى. لم يكن لأحد غيرها أدنى فضول لكي يقرأ كتابًا خارج المنهج الدراسي المقرر عليه. كانت الكتب هي النوافذ الوحيدة التي أستنشق منها هواءً نقيًا، بعيدًا عن حالة الحصار التربوية التي فرضت عليّ، منذ لا أذكر..
ليلى -أختي- هي الفكرة التي لا أستطيع بالمطلق تخيل حياتي بدونها. في اليوم الذي تغيب فيه عن البيت، يضرب الملل والضغط كفيه على بعضهما، لينفض عن نفسه غبار كبته، ويهاجمني كرجلٍ يأخذ ثأر أبيه بعد أربعين عامًا من ضمره.. لا أحد في دنياي غيرها تغدو شتائمه لي ثلجًا على جمر قلبي.

أختي هي أمي وصديقتي، ولا أحد يساوي ودها في قلبي.. أجدها في مفرداتي، تستحضرها قوى عقلي كرامة لنجواه عندي. أذكر تفاصيل إحساسي، كما لو أنه الآن.. وقتما كنا نغني معًا شارة المسلسل الكرتوني "أنا وأختي"، أذكر صوتها حين يأتي دورها في غناء مقطع: " لو سرقت منا الأيام، قلبًا معطاءً بسام، لن نستسلم للآلام.. لن نستسلم للآلام ".. صوتها كان يستفزني، لنصرخ سويًا بفرحٍ "لن

تستسلم للآلام". منذ ذلك الحين وحتى الآن، وأمي لا تكف عن زجري بتلك النصيحة التي كانت أول سجني: أخفضي صوتك.

إذا كان هناك أحد يعرفني أكثر من نفسي فهي أختي! كانت تعرف -ليلي- تمايتي من الذهاب للمكتبة، فقد أخبرتها صديقتها المقربة أن الشاب الفلسطيني نبيل، الذي يعمل بالمكتبة، معجبٌ بي إلى حدٍ كبير.. وأنا في الأصل يهفت قلبي للذهاب للمكتبة كي ألقاه، ولو مصادفة من بعيد.

أنا وليلى تناقشنا عنه كثيرًا. حديثي معها عن الرجال متسقٌ جدًا، يبدأ بدراسة أولية لثقافته ودرجته العلمية، ثم بتحليل شامل للبيئة التي عاش فيها، ثم جنسيته، ووضعه الاجتماعي والمادي، ثم أناقته، وتحديدًا إذا ما كان حذاؤه الذي يرتديه موائم مع باقي ملابسه أو لا.. كنا نكره جدًا الرجال الذين يرتدون نفس الحذاء على كل ملابسهم !

نحن مولعات بالموضة، ولدينا نظرياتنا الخاصة.. إذا كان الرجل يهتم بأن يكون حذاؤه نظيفًا ومناسبًا لنمط لبسه، إذن هو بالضرورة مهتم بكافة التفاصيل الأخرى التي تسبق ارتداء حذائه، بدءً بتناسق ألوان ثيابه، إلى العطر، إلى ترتيب الشعر وتهذيب اللحية و نظافة الأسنان.. ونضارة الابتسامة!

نظرية غريبة، لكنها ناجحة، وأنا أتبناها كليًا. أنا وليلى قد قمنا بدراسة تطبيقية لمعظم نظرياتنا على شخصية نبيل.. وقد كان ينجح في معظم الدراسات، باستثناء حديثه العذب مع زبائن المكتبة من النساء بلا استثناء! كان يغيظني حقًا هذا الشيء، لكن كان يسعدني أنه لم يكن خجولًا إلا معي!

آدم

على تردد، أستقبل هذا الصباح. أخطو بخوف على أطراف الروتين، لأتحاشى الملل. الشمس تزمجر غضبًا، زجاجة الماء بجانب السرير فارغة، دبٌّ يجلس فوق صدري. أسرف أكثر من غمضة في التفكير بأول قطعة موسيقية أسمعها.. أتحاشى فيروز، كي أظفر بصباح مختلف.. بدلا من القهوة أعددت الزنجبيل. الهاتف المحمول! نعم، لا بد أن بطاريته فارغة الآن، نسيت أن أضعه في منفذ الكهرباء!

زجاجةُ عطر رخيصة من سوقٍ شعبية أخدع بها أنف الصباح.. أفتح الانترنت، أتأمل حساب حبيبتي التي تسكن في مكان لا أصلُ إليه.. ألعن حظي، ثم أعد قهوتيّ وأستمع لفيروز.. " في أمل..".

أتدارك ابتسامتي الساخرة دائمًا حين أنصت لهذه الأغنية، ويبدأ يومي على حين ملل، وينتقل من الأطراف إلى متن الروتين!

لقد تركت غزة منذ سنين.. كنت أبحث عن التغيير، وعن معنى آخر لأبجدية الوجود، خارج منظومة الظلم السرمدية التي تعيشها مدينتي الصغيرة.. أريد أن أرى شوارعَ مختلفة، وأحظى بمساحة أكبر لحدود حريتي وتحركاتيّ.. أبحث عن مصادفة توقعني في شباك حبيبة - أو صديقة- أحدثها عن شغف الحياة الذي يعتريني ولا يمر بي. أريد المارة يبتسمون لي، إذا ما تقاطع نظرنا على الطريق.. لا أريد البحر

ملاذي الوحيد لرذاذ السهر.. أريد الشاطئ للتأمل، لا للعشاء ولا الغداء ولا للفطور، ولا لممارسة الرياضة، ولا لكل تلك الأنشطة التي يحتضنها البحر وكأنه نادٍ شعبي كبير، يشبه في زحامه القاهرة ساعة الظهيرة!

أجوب الحب على هيئة خطيئة في خيمةٍ صغيرةٍ على ضفاف مخيلتي، كي أخفف من وقعها على ضميري الشفاف. هذه الدنيا ضاقت، وأعجبها ضيق حلقاتها، وأعجبتها إقامتنا في عقر الزجاجة.. يكفي أن يجلس أي أحد معي الآن، كي أقضي له على ما تبقى من أمل.. تركت في غزة أجمل حبيبة. رحيلها وضعني بين بنيان مخجل مرصوص حولي، أنا الرجل الذي لا يجوز له أن يبكي من أجل امرأة؛ بل صرف سخرية أن تفكر بالحب وتنسى أوجاع المدينة. لا يفترض أن تحب وأنت في أي لحظة قد تتعرض للموت. الحياة في غزة على كفٍ لا يصفق لك؛ لكن شغفه الوحيد أن يلطمك.

لقد شهدتُ في غزة الحرب الأولى عام 2008، والتي راح فيها نحو 1500 شهيد، من بينهم حبيبة عمري "شهد". نعم، بهذه البساطة تحولت حبيبتي من روح إلى رقم. ليس كل الشهداء يحملون السلاح.. أكثرهم يحملون الأحلام، ويحلمون بالسلام.

أذكر وقع الخبر جيدًا؛ كأن نحاتًا نسي آدميتي، وأخذ بالإزميل والسكين ينحت من شبابي كهلًا، ويقول عن دمي المتناثر كالغبار – إثر ضربات الإزميل في جسدي-: لا بأس، سأكنسه حين أنتهي من صنمي. من يومها، وأنا صرت أحس على الدوام بألمٍ في صدري. لم

يبالِ أحدٌ بكسرتي.. الكل مشغول بما هو أهم: توفير الطعام، وشراء المحروقات، ومتابعة الأخبار.. إنها الحرب!

لم أستطع الخروج لأداء واجب العزاء. أأذهب لجنازة حبيبتي؟! القصف لم يتوقف، وسلك الطريق من شارع لشارع بمثابة التهلكة. ثم بماذا أقدم نفسي لوالدها؟ هل أقول أنا حبيب ابنتك، التي أنا على علاقة معها منذ أربعَ سنوات ونحن منذ ذلك الحين نفعل المستحيل كي لا تعرف؟!

لم أفهم معنى الدموع الساخنة إلا يومها. كان إيقاع صرير أسناني هو كل ما أسمعه. لم أشغل بالي بصوت خفافيش الاحتلال التي تدنس زرقة السماء، لم تُؤرقني رنّات الأخبار العاجلة، وأنا أحتطب دمعيْ من هنَا، وألملم حزنِي من هُناك!

خررت مفلوج الصدر إلى غرفتي، وأغلقت الباب على ظلمتي.. ذلك اليوم كان أول يوم أكتب فيه. ظللت طوال أيام الحرب أكتب. أنا أذكر حتى الآن أول سطر كتبته، فقد ظللت أكرر كتابته على مدار أيام.. وقتها لم أستطع أن أخاطب في شكواي تلك إلا الله؛ كتبت:

"يا الله.. إني مكسور يا الله.. مذبوح في أكبرِ شريانٍ. أوعيتي تشهد آلامي.. أضلاعي تفتُك أضلاعي.. وطني يوجعني، وأوردتي تسكب في قلبي جمر الفقدِ وأحزان الناي".

كنت لا أفعل الكثير في الحرب. لا أصوات الصواريخ، ولا صراخ الناس، ولا العتمة التي استمرت لأكثر من شهر تشغل بالي،

أربع أشياء أفعلها: أمتثل لرغبة زوجة أبي وأذهب لشراء الخبز تحت
أظل واقفًا لساعات طويلة أمام المخبز، حتى أحظى بربطة خبز ثم
أقرأ، أبكي، وأكتب.

لقد كنت منكبًا على نفسي بقراءة القرآن، مثلي مثل كل أولئك الذين يجدون فيه ملاذهم للسكينة. لكني لم أكن متدينًا أبدًا.. كانت قراءتي للقرآن بمثابة المفتاح الذي فتح خزان المفردات المطمور في ذاتي، والذي كان سببًا في أن أسلك الكتابة طريقًا، أمدد فيه سيرورة أحلامي. أنا الآن أكتب في العديد من المواقع الإلكترونية تحت اسم مستعار.

كل ذلك الفضل يعود لقراءتي القرآن، الذي كنت أقف مذهولًا أمام تعبيراته وجمله الرصينة. علمني القرآن الكتابة، والثقة بالنفس في إدارة الحوار. كنت في السابق أتلعثم بالكلام حين أتحدث، وطوال حياتي الدراسية خجلت أن أرفع يدي للإجابة على أي سؤال في الفصل. علمني القرآن الاطمئنان كيف يكون، والاستقرار الذهني والعاطفي كيف يسير، ودربني على الرجاحة والرزانة في الحديث والسكوت، وفي السكون. أذكر كم توقفت كثيرًا عند سورة الرحمن! كنت أشعر بعمق وجود الله قربي وحولي في الآن الذي أقرأ هذه السورة. كان تجويد حرف النون فيها مثل حليب الأم، يخلق بيني وبين الحروف ارتباطًا روحانيا معقمًا لا يمسس صفاءه لا الشيوخ ولا المراؤون! صرت أكتب وأقرأ كل يوم، لأحمي ذهني من التلف؛ فالكتابة والقراءة أكثر الملاجئ نفعًا للهاربين من الأحزان. أجمع كتاباتي في ورق.. تكدست عندي نصوصي، وتنوعت، وصار عندي محصول

كبير من المقالات. كانت القراءة -إلى جانب الكتابة- هي الأساس الذي يصنع لغتي. ما أجمل أن تكون لديك فكرة في الصغر، تجدها بعد سنوات مطروحة من قبل شاعر أو عالم أو فيلسوف. كانت هذه المصادفات بمثابة الماء الذي يروي بذرة الكتابة في داخلي. تزداد ثقتي بنفسي كلما تشابهت بفكرة لفيلسوف أو عالم. هذا الشيء الذي جعلني أشعر أن لدي شيئا كثيرًا لأكتبه. لكني -حتى الآن- رغم كتاباتي، ما زلت على يقين بأن هناك شيئا ينقصني، ويمنعني أن أسمي نفسي بكاتب؛ ألا وهو مُلهم المبدعين: الحب!

ريم

كان فلسطيني مغترب، يعمل في مدينتي منذ —تقريبًا— عشرين عاما، حيث هاجر والده من فلسطين إلى هنا، ليستقر ويبدأ حياته وتعليمه، مع واقع بعيد عن أرضه.

لاحظت —من خلال زميلاتي الفلسطينيات، وصديقاتي اللواتي درسن معي في المدرسة— أن هناك شيئًا مشتركًا لدى معظم الفلسطينيين المغتربين في البلاد العربية، يكمن في أن معظم الشباب يعملون ويدرسون في آن واحد، يتحاشون المشاكل، كما يتحاشون الحديث عن السياسة.. عمليون جدًا، وفي سماتهم يشتركون جميعًا بهالة الحزن تحت عيونهم.. هناك لعنة تطاردهم في كل البلاد العربية؛ لعنة الإقامة.. في كل سنة تتجدد معاناتهم بشكل مضاعف. لم أكن أعلم أني سأكون سببًا في تضاعف مكيال اللعنة على نبيل.

غانم، أخي، ثقافته جيدة، متدين نوعا ما، طيب.. أو —لا أعلم— ربما لا؛ لأني أشك في طيبته. المهم، أن ما بدر منه قضى على آخر نفس للحرية كان يتأرجح في حياتي. لا أظن أني سأغفر له.. ربما لو كان ما حدث يخصني وحدي، لأسعف ذلك شيئًا من الموقف.. لكنه قضى على كثير من مفردات حياتي برصاص الظن.

منذ تلك اللحظة، وأخي مصدر قهري الأكبر.. يوجعني دائمًا، إن لم يكن بالكلام فبالنظرات التي لا تكف على أن تراني عارًا عليه.

أعترف أن غانم ناجح في حياته، رعانا كثيرًا، وكان يقف دائمًا مظلة تحمينا من ضوء أبي الحارق. فزواج أبي بأمي كان صوريًا، وكان هو الوالد في الكثير من الظروف، وكان سندًا لأمي.

أمي تحبني جدًا، لكن لديها رعبًا من فكرة أن يقال لها "أنت لم تستطيعي أن تربي جيدًا". كان عارٌ في مجتمعنا أن يقال لأخوتي "تربوا على يد امرأة".

أمي ضحت كثيرًا رغم انفصالها عن أبي، منذ كان عندي ثلاثة عشرة عامًا، لم تشأ الذهاب إلى المحاكم للطلاق. قبلت على نفسها أن نعيش في بيت أبي، دون أن يعلنوا جهرًا أنهما مطلقان. لم ترغب بأن يطلقوا على أبنائها نعت "أبناء المطلقة"!

أمي جميلة.. جميلة جدًا. هي من أصل بدوي.. أخذنا منها الجمال والطيبة المطلقة، أنا وليلى على الأقل. ملامحها أصيلة، أنف دقيق مرفوع قليلًا، بشرة بيضاء نضرة جدًا، عينان واسعتان كحيلتان، وشفاه ممتلئة صغيرة —كنت دائمًا أمازحها القول بأن في شفتيها لوحدهما نصف جاذبيتها—.. العنق صاف طويل، جسدها ممتلئ، لا أتعذب في وصفها، لأني أكاد أن أكونَ نسخة طبق الأصل منها، أحفظ ملامحها جيدًا من مرآتي.

أبي كان ساديًا جدًا.. أذكر كل تلك العلامات التي كانت تظهر على عنق و وجه أمي بين حين وآخر.. كان يجد لذة شديدة بإلحاق الأذى الجسدي بأمي. لا أنسى ملامح وجهه، حين كان يتسبب في بكائها.. ابتسامته.. سعادته.. الفرح يكاد يتطاير حوله ويدور فوق رأسه.. كان يتمتّع برسْم الوَجع على محياها..

آدم

عند الساعة السادسة مساءً، دفعت بصعوبة باب البلكونة، الثقيل المهمل في الركن المنسي لشقتي، والذي يواجه أشعة الشمس بشجاعة طوال العام. دخلت لكي أجري اختبارًا أوليًا للطقس، حيث من النادر في الصيف أن تحظى عند مقتبل الغروب بنسمة هواء في مدينة 6 أكتوبر، حيث أعيش. كان الجو مقبولًا نوعًا ما، لذا أحضرت جهاز حاسوبي المحمول، وارتأيت الجلوس على كرسي من بقايا الأثاث التسعيني القديم.

أنا ما زلت أسيرًا للفكرة الهلامية المزروعة في مخيلات الناس، بأن الكاتب لا يمكنه أن يبدع بالكتابة إلا على الشرفة أو على شاطئ البحر، أو إذا شرب نهرًا من الكحول، أو إذا اعتكف بمعزل عن البشرية بأجمعها.

بدأت أكتب لنفسي، وكانت نصوصي خاصة مثل خصوصية العلاقة بين الرجل وامرأته. تبادلني الكتابة الحب، وأبادلها الاهتمام. أنا أقطن في المجاورة الثانية في الحي الأول من المدينة 6 أكتوبر. معظم سكان هذا الحي من الطلاب العرب المغتربين. وربما لا أبالغ إذا قلت إنه من الممكن أن تجد من كل عشر أشخاص .. ثلاثة أو أربعة مصريين بينهم. الحياة في مدينة أكتوبر مختلفة كثيرًا عن باقي مدن

القاهرة.

فتحت الحاسوب، وأخذت أتصفح بقايا الذكريات المخزنة على الجهاز. بدا الحنين يكتب رغمًا عني ويقول: قد جف حلق محبتي، لا شيء يروي تقشف قلبي.. هل يستطيع القلب قبول الحب مرتين؟ سؤال لا زلت أتمنى أن يجيب عليه حظي بإيجاب. شهد.. بثلاثة حروف تُختزل مناجاتي! إن صوت الحنين للشهداء الأحبة صارخٌ جدًا يدمي في البراري، طوبى للنسيان..

نعم تركت غزة، تركتها وتركت مدمني السلطة يتصارعون على فتات ما تبقى من الأرض، وما نجا من القضية. عزلت نفسي عن السياسة.. فأنت حين تفقد عزيزًا، تشعر بأنك صرت أكبر من أن تتابع مناكفة سماسرة الوطن.

لكني لا زلت أعاني كلما أردت أن أكتب عن نفسي، من تداخل أفكاري والمواضيع.. في الحب أجد السياسة تقحم ذاتها في مجازي.. في الأكل، في الشرب، في الخروج، في السفر.. في كل شيء تقحم نفسها كالبعوض، ولا تكف عن لدغ لذتي.

المهم، حياتي في مصر كانت بعيدة عنها.. حياة هادئة، تكتنفها البساطة في كل شيء. حتى الأكل، أكتفي فيه بثقافتي الضئيلة مع الطبخ، مقلاة بندورة، وبطاطا مقلية. أدمن الجلوس على المقاهي المصرية، أتنفس البساطة وراحة البال هناك بعيدًا عن زحام القاهرة. في مصر، روح الحياة أجمل ما فيها.. لا أظن أن بإمكان أي سائح أن يستمتع بها دون أن يخالط حياة البسطاء. الحق أقول، إن في حياتهم

الكثير من ارتشافات السعادة. أنا منذ البداية جئت لمصر أبحث عن الهدوء، خارج ضجر السياسة والشعارات الوطنية التي ترهق أمعائي، تأخذ مني ولا تعطيني. فأنا على يقين أن السياسة لن تستطيع يومًا أن تعيد لليمامة بنت كليب أباها حيا.. ولا تستطيع أن تعيد لي شهدي!

مشكلتي مع الوطن أني لا أستطيع أن أراه بعيون ضيقة.. ومشكلتي في الهروب منه أني لا أستطيع الهروب من دمي. لكن هل يمكن للروح أن تخرج من المادة، وتبقى المادة محتفظة بسرها؟ السر في الروح، إن حواسي كلها متعلقة بشهد، وشهد متعلقة بفلسطين، وفلسطين متعلقة بأيدي حفنة غير مسؤولة، يتناثرون كالغبار في مختلف بقاع الأرض.

كنا أنا وشهد روحين مدهامتين متداخلتين؛ ما إن رحلت حتى اختل توازني وتشوه. حاليًا، أنا النصف المشوه، وشظايا نصفها المقتول يجرحني في كل مواضع جسدي. تعرفت على شهد منذ كانت في المرحلة الإعدادية، حيث كانت لدينا مكتبة قرطاسية أمام المدرسة التي تدرس بها.

شهد.. حبيبتي! كانت من أكثر الناس ارتيادًا لمكتبتنا على الاطلاق. أنا أكاد أحفظ ما تحتويه مقلمتها دون أن أفتحها.. قلمين رصاص، واحدًا منهما بأسنان، وأقلام حبر جاف أزرق وأسود و أحمر وبنفسجي، مرآة صغيرة على ظهرها صورة لزهرة الأوركيد، ممحاة زهرية، ومسطرة –التي ما إن حركتها حتى تتغير الصورة المطبوعة عليها– قلمًا فسفوريا، وقلم حبر.

نعم، فكل هذه الأشياء أنا الذي أبيعها لها، منذ أصبحت طالبة في المدرسة الابتدائية. كنت نذلًا معها في البداية، وهذه عادتي في

البدايات.. لم أهدها شيئا من المكتبة؛ كانت تحاسب على ثمن أي غرض تشتريه دائمًا، وبذلك كنت مصدر إفلاس لها! هذا الشيء من ضمن الأشياء التي لا أسامح بها أناي.

كانت تستخدم دفاتر المحاضرات في المدرسة، وكانت تتزعج من مُدرسة العلوم التي تجبرها على الدفاتر المدرسية ذات **100** ورقة. ما أجمل أن تعيش طفولة جنبًا لجنب مع المحبوب، فأرض المحبة فيها خصبة تحصنها عشرة الأيام. من ضمن الأشياء التي لا أدري أي حب جديد يستطيع محوها من ذاكرتي، هي ذكرى عيد ميلادها، خصوصا بعدما أعلنت صراحةً لها حبي.

خرجت تقريبًا عند منتصف الليل، بعدما حل الرعب على المدينة، وخلت شوارعها من أي نبس بشري. كنت مرعوبًا ومترددًا جدًا؛ فوقتها كان الوضع الأمني لا يسمح بأي تهور من هذا القبيل، خصوصًا وأن ظلام الانقسام في أول حلكه، فقد شهدت البلاد تلك الأيام نشوء سلطتين سياسيتين وتنفيذيتين، في صيف عام **2007**م في الضفة الغربية وقطاع غزة، وكل منطقة منهم تحت سيطرة تنظيم سياسي وعسكري مختلف. بالنسبة لغزة، فقد أبصرت بداية لظهور جهاز أمني جديد، منفصل أو متصل مع وزارة الداخلية؛ لا أذكر، أو لأكن دقيقًا لم تكن تهمني تلك المعلومة، فلا فرق عندي. لكن ما أعرفه من رؤيتي السطحية للأمور، أنها تسمى بالقوة التنفيذية. المهم، كانت هناك عناصر من تلك القوات يجوبون الشوارع ليلًا كل يوم، وتقوم بالتحفظ على المشتبه بهم. لذلك، كانت فكرة القبض عليّ وأنا أكتب على الجدران تخيفني جدًا.

ستكون فضيحة كبرى على المستوى الشخصي والعائلي. مقابل بوابة مدرسة للبنات، شاب يكتب بالفحم على الجدران رسائل حب في عيد ميلاد حبيبته!

صراحة، حتى الآن التذكرة ترعبني، وقد مرت سنوات طويلة على ذلك اليوم. لا أتصور خجلي من نفسي لو تم التقاطي متلبسًا وقتها. لكن الحمد لله، أنهيت لوحتي بالكتابات الرمزية، التي لن يفهمها أحد سواها، وهرولت ركضًا للبيت.. كنت كالذئاب الخاطفة أركض. دخلتُ البيت مثل اللصوص بالضبط.. تمددت على فراشي، كانت مفاصلي تتخبط في بعضها البعض، تلحفت بأكثر من لحاف، كنت أرتجف من شدة الخوف والبرد، أحاول أن أمنع نفسي من مراسلتها على الجوال، كي لا أفضح مفاجأتي. والحمد لله، تفوقت ليلتها على نفسي، ومنعت نفسي من التهور بإخبارها.

لكني محاولاتي في النوم فشلت.. بقيت حتى ساعات الصباح مستيقظًا، أريد أن أشهد الحدث أولا بأول..تذكر تلك الأحداث يبعث قشعريرة في جسدي. استحضار مشاعر قديمة أشبه بمعجزة خفيفة على العقل، وأنا أحب أن أجدد دهشتي بالمعجزات.

ريم

دائما ما ينظر لي أبي بعيون لا أفهم لغتها. أنا متراخية الأعصاب، على عكس أمي المتوترة دائمًا. لا أختلق الأسئلة، ولا فضول حتى لأسئلة ضرورية أطرحها على والدي. أنا باردة جدًا، وقد ورثت من والدي هذا الطبع. إذا غضبتُ أبكي وحدي، وتبكي عزلتي معي، على سبيل التضامن لا أكثر. أتحاشى هيجان البراكين، أقف في الصف الآمن لكل الخيارات، حتى في ثيابي لا أغامر، أسير في حياتي بين بين. ربيتُ مدللة أسيرة، لا أعرف كيف يلعب الأطفال في الشارع. حُرمت من الاختلاط بالبسطاء، أبعدني والدي عن أكثر من ثلثي العالم بذلك.

تعلمت سرًا إعداد الطعام من مربيتي أم خالد. أمي تمنعني من الذهاب إلى المطبخ. مربيتي من أقرب الناس لي. هي سيدة مصرية، تبلغ الآن من العمر أربعين عاما، أحس بألفة شديدة معها.. لا تختلف كثيرًا عن أمي بخوفها عليّ. أمي تضحي بالصمود أمام سطوة أبي، وأم خالد تضحي بتربيتي، فأنا وليلى نكاد نسيطر على نصف وقتها. أشعر بشيء من اللهفة للعيش في مصر..عالمي الجميل عشته مع مربيتي المصرية.

أخذت من أم خالد ذائقتها الفنية، التي تنتمي لجيل السبعينات والثمانينات. هي الوحيدة التي لا أبرر أمامها كل تصرف أتصرفه، والحقيقة التي تجعلني أدرك أن الحياة ليست وهما. الشيء الوحيد الذي أخفيه عنها هو الحب الذي يلين قلبي له. لم أشأ أن أضعها في موقف

محرج مع والديَّ. الحب، الحقيقة الثانية التي أعيشها فوق الغياب والغشاوة المتشعبة في أزقة الأوهام.

الحب والبساطة دائرة نجاة من كل فخ متكلف بين جدران الذهب، وفوق صرخات العمال، وتحت ألسنة الشمس. أكره التكلف، وأتحاشى اللامبالاة. الناس حولي إما مسرفين فوق التشبع تسيطر عليهم المظاهر، أو مسرفين في لؤم اللامبالاة التي لا تنبع من أمل. الحياة في مدينتي من سماتها التنافس في الإسراف، سواء كان على صعيد الفرح أو الحزن. مجاراة الآخرين في الظهور بأحسن المظاهر في حكم الفرض. كم يؤلمني تبدل المعاني في بلادي.. الكرم انحرف عن فحواه، اللامبالاة صارت مأساة.

أذكر جدًا كم وبختني أمي لأني ارتديت يوما فستانا عاديًا في زفاف أحد أقاربنا. بل ليس ذلك وحسب، أبي أيضًا انضم لحزب أمي في توبيخي. كان الموضوع في أوج جديته.. نادرًا ما يتفق أبي بشيء مع أمي. عقلي يرفض أن يستوعب ما حصل ذلك اليوم من ترهيب وتوبيخ! أن تجرح وجاهة الأسرة وهيبتها، تلك أشياء لا تغتفر. أنا وأبي اثنان لا نتقاطع أبدًا. أبي يحب أن يتباهى بحبه لي أمام الناس. مثلا، لو ذهبت لشركته ودخل أحد الزوار إليه أثناء تواجدي، يتحدث معي وكأننا "سمنة على العسل" وما إن يخرج الضيف، حتى يعود الصمت المريب بيننا!

علاقتي مع أخي غانم تحولت لمرحلة الصمت المريب، مثل علاقتي مع أبي تماما. ذلك بعد ما حدث في المكتبة. الحدث الذي شكل نقطة فارقة في حياتي.

آدم

اعترفت مباشرة بحبي لها، وطويت صفحة التلميح يوم الجمعة الموافق **3-8-2007**م، حين أسدل المساء ليله على صيف المدينة. خجلي كان مليكي وأنا طوع أوامره.. لم أعترف لها بالحب وجهًا لوجه، بل خسرت معركتي مع الشجاعة. فضلت إرسال ذلك في رسالة **SMS**، وندمت لاحقًا على تلك الخطوة. لم أكن بطلًا، وذلك كان أول ضباب ندم يغم على نفسي.

صحيح أني أهملت عقلي و ربحت قلبي وقلبها؛ لكني لم أربح نظرة عينها في أول مرة أعلن لها عن حبي.

أرسلت لها في نص الرسالة كلمة واحدة: أحبك!

يا إلهي من كمية التخمينات والتخيلات التي اخترعتها يومها! بالفعل كانت مهولة. ميزة الحب الأول أنه يأتِي للقلب قبل أن يُسمم بالتجارب والأغاني والروايات. يأتي لقلبٍ بريء، بمميزات طفلٍ رضيعٍ.
هذا الذي يجعلني أبتسم كلما تحدثت عن شهد، وجعلني متردد في اعلان حبي، ولساني بوزن دب يصبح إذا ما أردت البوح عن عواطفي.
كنت أفكر و أسأل نفسي: ماذا لو كان الجوال في يد والدها، أو

امها، أو أختها التي لا تكف عن كشف أسرارها لوالديها؟ ثم بأي وجه سأقابلها، لو أنكرت علي حبي؟

ماذا لو كانت الحكومة الجديدة تراقب الهواتف والجوالات؟ فقد كان هناك هوس من هذا القبيل، زرعته عصافير الحكومة عند الشعب.. ماذا لو قيل إنني ضُبطت متلبسًا بمحادثات غرامية مع طالبة في إحدى المدارس الثانوية؟

وفي تلك الأقاويل يتسع التأويل الغزي....

المهم، بعد 15 عشر دقيقة و 43 ثانية بالضبط، جاء رد شهد على رسالتي. ثوان قليلة عشتها قبل أن أفتح الرسالة.. عشت فصول الخريف والصيف والربيع والشتاء كلها في ثوان..

قالت: لا تتوقف!

أرسلت لها مجددًا: أحبك..

ردت: لا تتوقف ولا تهرب ولا تخذل !

مسني حبها والكلام.. سميتها من نسل لقمان. عدت للصفر من بعد هذا، واصطفيت لها من القلب أنقى المشاعر، رتبتها ووظفتها وصيفةً في خدمتها إلى نهاية الزمان.

يومها وبالضبط، اختفت معاناتي مع انقطاع التيار الكهربائي وخبائث الحصار على غزة من الداخل والخارج، وحتى معارك التوظيف والتنصيب.. نعم، علمني حبها أن أغرد خارج أسراب المعاناة. لم يعد يهمني تخزين البنزين، ولا الاختراعات الجهنمية للتكيف

مع الألم والظلم وقسوة الحياة. كل ذلك لم يعد يعني لي شيئًا. كل شيء صار في حياتي هادئا، وإن توشحت المدينة بالانقسام. فالحب يجعل من حياتك وسط النار بردًا، ويباركها بالسكينة والسلام، ويبعد عنك أفكار الهجرة والخروج من المدينة المحاطة بقصديرٍ ساخن.

منذ توفت أمي بسرطان الدم، وقلبي لا وزن له. جاءت حبيبتي لتمنحه ثقلًا ومعنى. صار أشد زحامًا من الصين والهند، مكتظًا بالأغاني والأحلام. في اليوم التالي، الذي كان مقررًا أن أرى شهد فيه، بعدما اعترفت بوضوح بحبي، كنت أضعف من قشة.. حتى أني استغربت نفسي، كأني أحب على مضض!

ريم

اقتحم أخي المكتبة والشر يتصبب من وجهه، في الوقت الذي كنت فيه في أوج سعادتي. لا أعرف كيف علم بوجودي هناك، ولا يمكنني تخمين أنه جاء بناء على وشاية، فما من أحد يعلم بقدومي إلى المكتبة كي أهدي نبيل في عيد ميلاده، غير ليلى أختي.

لكنه في لحظة، استطاع أن يفترس سروري، وينتزع أعمق جذوره. لقد أجهض حياتي كلها، بآمالها وأحلامها وقصصها الوردية. تقدم نحوي وملامح وجهه تشبه وجه أبي حين يرغب أمي وترفضه.. ظل صامتا يحدق في نبيل وينظر بتقزز لي وله، ثم اقترب مني وقال لي:

"ارجعي يا كلبة على السيارة!"

أنا كلبة! ينعتني أخي بوقاحة بهذا الوصف أمام نبيل! كيف؟ كيف؟ بأي حق يقول ذلك؟ بحق الأخوة؟! ثم أنا، ماذا فعلت؟ أي جُرم؟ أي سواد هذا الذي يحاصرني؟

لم تسعفني الآهات كلها.. صب أخي على صدري جمرًا من جهنم. بالكاد أقدامي حملتني إلى السيارة. كم هزيل كان جسدي آنذاك! كل شيء أرتديه وقتها كان ثقيلًا، والأكسجين كما لو أنه نفد.

طعنت –في لحظة– عيوني بالدمع، اشتعلت حدائقي بالنيران، الدقائق لا تمر، أتلوك على الكرسي الخلفي، ولا أكاد أسمع حرفًا مما

تقوله أمي. خرجت من المكتبة بجريمة فاحشة في غُرف عائلتي. لم أستطع أن أعرف ماذا حدث داخل المكتبة بعدما خرجت. أصبت بحالة من الحنطة، لا أسمع ولا أرى سوى طشاش من نظرات أمي. كرهت جلدي ودمي، كرهت كل شيء. شعرت بدوخة شديدة، حين خرج أخي من المكتبة مشتعلا بغضبه. قلت لأمي: "خبيني"، ثم لم أذكر شيئا بعدها.. شعرت بهبوط شديد، وأغمى علي.

لست قويًا لكي أقوى على لقياك. كنت أحاول أن أتجنب عيونك. ركود في القلب، أو خجل حد الرفض؛ لم يكن بمقدوري أن أحدد هوية شعوري الذي أعيشه.

شهد، لقد كان لقائي الأول بعد الصفر معك فاشلًا، مثلما كان شكل الاعتراف محبطًا. نرتكب الكثير من الأخطاء في الحب، ولا نعيها إلا بعد مرور الوقت.

شهد، لها عزة نفس لا تضاهى، لدرجة أنها تكره كونها تدرس في مدارس وكالة الغوث للاجئين. حدثتني من قبل عن مقتها من حياتها كلاجئة، وعن بغضها كطالبة ترتدي زي البأس المدرسي المخطط باللونين الأبيض والأزرق، والمفروض على طالبات مدارس الوكالة. كانت تكره أيضًا أدوات القرطاسية التي يمنون على الطلاب بها.. ترى بشعار الأونرو على الكتب والدفاتر شيئًا مهينا، وكأنه جرس تذكير بالضياع.

كنت سألتها لماذا تشترين دفاترك وأقلامك من مصروفك الخاص، بينما لا تستخدمين المستلزمات التي تمنحها الوكالة للطلاب؛ قالت لي:

شعار وكالة الغوث يُشعرني بالوجع كأنهم يحتفون بتشردنا، ويُشعرني بأني ما زلت أعيش في مستنقع اليد السفلى، وأنا لا أكره شيئًا في

حياتي قدر الذل والهوان. أتمنى لو كان هناك بديلًا عن مدارسهم

حين جائتني في ذلك اللقاء، كنت أتعمد تجاهلها، بل وتماديت في ذلك لدرجة أني اقتربت منها وقلت:

انتظريني سأكون معك بعد قليل.

وابتعدت عنها خطوتين، ثم التفت لكي ترمقني أو أرمقها بنظرة على أضعف تقدير، فلم أجدها في المكتبة!

بالغتُ في تمنّعي غير المبرر، وخسرت مجددًا بسبب خجلي وتوتري. غفّلت عزة نفس غيري، فرحل بغفلة عني. على مدار اليومين بعدها أجريت أكثر من مئتين محاولة للاتصال بشهد، وشهد لا تجيب. الورطة هي محاولتك لإصلاح ما أفسدته في علاقتك مع فلسطينية، جبروتها في عزة نفسها!

ما أقساهن الفلسطينيات حين يغضبن، ما أعنفها من لعنة تحل عليك، ما أتعس حالك.. لله درك إن غرقت في هذا الحال. حاولت في مرة أن أمازح شهد في إحدى أغاني الفنان اللبناني وائل كفوري. قمت بقص الجزء الأول من أغنيته "عم بكذب عليك" وأرسلته.. كان بدايته:

" لا بحبك ولا بموت فيك،

ولا أنا متعلقة روحي بإيديك،

ولا وحدك بقلبي،

بصراحة في معك شي 15 عاشقة شريكة،

حلوين.. شو حلوين.. والبشعة حلاها متلك

لا..وزايد عليك"

تحولت شهد في ثوان إلى تمثال أبو الهول، لا تستوعب ولا تستجيب. قلبها وعقلها تحولا لكتلة صخرية. ظللت أشرح لها على برنامج المحادثات "Messenger" مزحتي، لكن لا حياة لمن تنادي.

كانت تلغي باستمرار قبول المقطع الثاني من الأغنية الذي يقول:

" ما بقصدك و حياة عينيك

شو صرلك زعلتي يا تسلميلي أنا

لا تصدقي

عم أكذب عليك"

ثم ما هي إلا دقائق، حتى قامت بحظري من قائمة الأصدقاء عندها. مرت بعدها على ما أذكر أربعة أيام حتى رفعت الحظر، وحين بدأت بمحادثاتها قالت:

لا تحاول أبدًا التلاعب بمشاعري، حتى ولو على سبيل المزاح!

نعم، مخاطرة كبيرة أن تجرح أنثى تسبح في فُلك الكبرياء. لا تفعل يا صديقي، كي لا تغرق في بحر الرجاء والتبرير. ولولا أنني ذهبت في ذلك اليوم إلى بيت صديقي، الذي يسكن في نفس البرج الذي تعيش فيه شهد، لما رأيتها بعد ذلك أبدًا.

فقد ظللت في شرفة بيت صديقي وفي يدي باقة ورد، أنتظر عودتها من المدرسة لكي أعتذر. وما إن لمحتها تدخل البرج، حتى

سارعت بالخروج وضغطت على المصعد كي أستطيع أن أراها. كنت أدعو الله أن تكون في المصعد وحدها. ما إن فتح المصعد بابه، حتى ظهرت أمامي وحدها. ظللت صامتا قليلًا، ثم أهدتني ابتسامتها التي جعلت جسدي يرتجف من السعادة والفرح. أهديتها باقة الورد، وقلت لها:

أنا آسف؛ لن أستظرف مجددًا معك، سأكون عند حسن ظنك.

أخذت الباقة وقالت:

لن أسمح لك أصلًا بذلك.

ثم أزاحت قدمي عن المصعد، وأردفت قائلة:

والآن اذهب من هنا، حتى لا تتسبب لي بفضيحة!

عدت إلى بيت صديقي، وبدأت أنسج له من القصص والأكاذيب أساطيرا.... صديقي أيضًا يحب أخت شهد، والتي لا تعيره اهتمام أبدًا، لذلك كان عقله جاهزًا لكي يصدق أي كلام أقوله، حتى ولو كان مناف للعقل وخارجًا عن قوانين الطبيعة.

ريم

وجدت نفسي في غرفتي، لا أحد معي إلا أشيائي الثمينة على قلبي تؤازرني وتكاد على حالي تبكي.. الدباديب والجدران في حالة حداد، مرآتي توقفت عن مغازلتي كما لو أنها ساعة فرغت بطاريتها، هاتفي المحمول غادرني، كآبة تحوم حولي مثل الدبابير، لا هوية لي، ألم في أنفاسي، تعب.. إرهاق..، عظامي كما لو أنها ارتطمت بشيء، معدتي تؤلمي، وأشعر أني سأتقيأ أي شيء سأتناوله على الفور.

هذا الشعور أعرفه جيدًا؛ لقد اعتراني من قبل، لكنه لم يكن بهذا السوء على نفسيتي المهترئة. حاولت أن أحرك يدي، فلم أستطع. لم أنتبه أن هناك محلول في يدي!

بدأت بعدها أستوعب أني كنت في غيبوبة، ويبدو أنها استمرت لعدة أيام. حاولت تذكر ما حدث، لكن غشاوة الألم تطغى على الذاكرة.. لا قلب ولا جرأة بداخلي لكي أنادي أحدًا. كنت في أمس الحاجة لأن يقفل أحدهم صنبور الوجع الذي يضخ غضبه في وجهي.

دخلت أختي إلى غرفتي وهي تمشي على أطراف أصابعها، وفي عينيها الواسعتين نظرة أقرب لابتسامة ترمم شيئًا من الشحوب. لكن الثقل الذي تخفيه كان واضحًا خلف عذوبتها. كنت أرى الأوجاع خيلًا خلفها يتسابق للوصول إليّ، وقبل أن تطبع قبلتها على جبيني،

وتبدأ ببرمجة عقلي على الواقع الجديد الذى يتراءى أمامي بعد تلك الغيبوبة سألتها: ماذا حدث؟

قالت: أنت في غيبوبة منذ ثلاثة أيام؛ وأظن الأمر انتهى إلى الحكم عليك بالزواج في أسرع وقت!

شعرت بأن جسدي تبدل لونه. لم أنبس إلا بتنهيدة واحدة ثم سرعان ما دخل عقلي في صدمة وحالة من الشلل.

رمدت عيون ليلى، والتزمت الصمت. لكنها كانت تخفي ما هو أكثر من ذلك، فقد أردفت قائلة:

وغانم تسبب في ترحيل نبيل من البلد!

سألت نفسي، هل نحن النساء شياطين في أعراف مجتمعاتنا العربية؟ وهل لا تتصرف روح الشيطان عندنا إلا بالزواج؟ لماذا لا يكف الرجال عن ذكرنا في مجالسهم بناقصات عقل ودين؟ ولماذا لو ذكرت أمهم بهذا الوصف يضجون غضبًا؟ لماذا يصرون على أننا مادة مجردة من الروح!

كل تلك الأسئلة طرحت حصادها، بعدما شعرت أني صرت على السلم الأخير الذي يفصلني عن محيط الظلمات!

حُكم عليك بالزواج!..

نعم حكم عليّ، فأنا لم أكن أعيش في بيت أهلي إلا تحت الحجز الإداري، إلى أن عُرضت على نيابة البلوغ، ونضج جسدي ونهداي، الأمر الذي أهلني أن أكون وديعة قيمة في بنك "ما ملكت أيمانهم".

أريد أسبرين، أسبرين، أسبرين.. ما أعنف حاجتي للأسبرين الآن.

توقظني أختي من شرودي: ريم.. ريم، العريس صديق غانم، وأنا هنا بأمر من أخيك، لأحاول أن أقنعك، لكن من وجهة نظري، لو استطعت الرفض سيكون خيرًا لك.

وجدت نفسي بعد هذا الكلام أجهش بالبكاء في حضنها. كانت تربت على شعري وتبكي معي. إن العدالة الوحيد التي أعيشها تكمن في أن ليلي أختي.

مرت الأيام صامتة. عرفت من أختي أن أخي كان يعاير أمي بي، وبأن أمي لم تستطع تربيتي بشكل لائق، وأنها سبب دلعي، واتهمها بأنها تعرف أني على علاقة مع نبيل!

أنا على علاقة مع نبيل! ماذا يقصدون بعلاقة؟ أنا بالكاد أذهب للحمام وحدي. كل تحركاتي تحت شمس مراقبتهم الحارقة. كيف أقيم علاقة؟ أنا لا أجد تفسيرًا لهذا الهراء.

لقد دمرت حياة نبيل بخطوة مترددة على أعتاب حياته، كانت هذه الغصة معضلة بداية كراهيتي لنفسي.

بعد مرور أسبوعين، دخلت أمي غرفتي مغتصبة خلوتي، لتفاتحني بموضوع الزواج، كان ردي جاهزًا من قبل، فقد أعددت له مسبقًا.

"لن أتزوجه ولو كلفني أمر الرفض حياتي!"

توشحت أناي بسواد البخت.. أملك كل جميلٍ في ملكوتي الداخلي.. و أخسره مع مطلع الواقع.. أنا.. من أنا؟ ضمير مستتر

تحت أغلفة الكتب وبين الألحان والحنين للأحلام. يا بحر.. أنا أنت، لكن يقتلني الظمأ!

هكذا حياتي..

ظللت أرفض الزواج، والبكاء سلاحي للحد من التعاطي مع الموضوع. لكن في غمرة يومٍ فاسد، جاءت أمي وقالت لي:

هل تظنين أني سأرميك لرجل لن يحترمك؟ لقد سأل عنه والدك وأخوك، وكل الناس شكرت به. هو رجل أعمال ناجح، سيصونك. إذا رفضت هذا الرجل، سيكون هناك آخر، ولن يكون هناك مفر. فكري جيدًا بكلامي قبل أن تجيبيني الآن.

طبعت قبلة على رأسي، ورحلت عن خلوتي.

آدم

اسودت الأيام بعد الحرب أكثر. وبدأ ويلات الحرب تلمع في العيون، وازدادت جذور الانقسام، وخرجت الخلافات العميقة والمتراكمة في النظام السياسي الفلسطيني إلى الواجهة، وانشق الوطن إلى نصفين انشقاقا فوق الانفصال الجغرافي الذي أوجده الاحتلال، وصار الحديث عن المشروع الوطني طي التخوين والمزايدة.

بعضهم يعتقد أن فرصة تسوية مشرفة ممكنة، وبعضهم يمتدح المقاومة، وكلهم يتناسون عن عمد أن فرصة إنجاز المشروع الوطني في ظل الانقسام تظل مستحيلة. ومع ذلك لا يكفون عن التلاسن، ولا صوت للمواطن بينهم. المواطن، الذي عاش ويلات الحرب، ها هي سكاكين الانقسام تشق شرايينه، ومُحرم عليه أن يتألم.

لا يستطيع أحد الخروج للمطالبة بصدق بإنهاء الانقسام. هذا ما كان يرهقني، وما دفعني للرحيل. في شطري الوطن، الكل يقمع وصار لدى فلسطين في كل شطر من الوطن معتقلون سياسيون!

كان يجب أن نكون أكثر وعيًا بالانقسام قبل ظهوره بالشكل المخزي الآن، فقد قطَعت سكين أوسلو الوطن إلى جناحين متباعدين، والحديث عن المشروع الفلسطيني فيه من الشك ما لا يصدق. لم يكن لدي جواب على سؤالٍ يتراود على ذهني باستمرار: هل

ينقص تاريخنا مصائب أكثر كي تاكفنا خلافات الانقسام؟ هل نسينا نكبة 1948، نكسة 1967، أحداث أيلول، صبرا وشاتيلا، خروجنا من بيروت، مسلسلات الانشقاق، معارك البداوي ونهر البارد، انحراف العمل الوطني خارج الأراضي الفلسطيني، وورطة أوسلو؟ لماذا لا نكف عن ظُلم أنفسنا؟ لا أتمالك نفسي كلما تأملت الحال الذي وصلنا إليه.. ما كل هذه المصائب العصرية، التي نستولدها وندعها تمر أمامنا دون أن نرفضها من البداية؟ انفلات أمني، فوضى سلاح، اغتيالات، اختطاف، وفصل كلي لغزة عن الضفة، اعتقالات، تصفيات، أنفاق، مفاوضات.. أجندة، تراشق لفظي بين حكومتين، وكل منهما تغرد في سرب برنامج سياسي لا علاقة له بالآخر، ثم أخيرًا نزعة الخوف.

حتى أنا، حين أتحدث عن هذه المسألة الشائكة التي تتداولها الفضائيات العربية بشكل فاضح، أظل أشعر بالخوف من عقاب. زرعوا فينا رعبًا من معتقلاتهم السياسية. أهلكوا ذواتنا، وما زالوا يتحدثون عن الوحدة والوطن والتحرير.

حالنا تماما أصبح كما وصفه محمود درويش في ديوانه "أثر الفراشة":

"هل كان علينا أن نسقط من عُلُوّ شاهق، ونرى دمنا على أيدينا... لِنُدْرِك أننا لسنا ملائكة.. كما كنا نظن؟

وهل كان علينا أيضًا أن نكشف عن عوراتنا أمام الملأ، كي لا تبقى حقيقتنا عذراء؟

كم كَذَبنا حين قلنا: نحن استثناء!

أن تصدّق نفسك أسوأُ من أن تكذب على غيرك!

أن نكون ودودين مع مَنْ يكرهوننا، وقساةً مع مَنْ يحبّوننا، تلك هي دُونيّة المـُـتعالي وغطرسة الوضيع!"

"لولا الحياء والظلام، لزرتُ غزة، دون أن أعرف الطريق إلى بيت أبي سفيان الجديد، ولا اسم النبي الجديد!

ولولا أن محمدًا هو خاتم الأنبياء، لصار لكل عصابةٍ نبيّ، ولكل صحابيّ ميليشيا!

أعجبنا حزيران في ذكراه الأربعين: إن لم نجد مَنْ يهزمنا ثانيةً، هزمنا أنفسنا بأيدينا لئلا ننسى!

مهما نظرتَ في عينيّ.. فلن تجد نظرتيَ هناك. خَطَفَتْها فضيحة!"

لقد أساء هؤلاء لنا، ولم يخرج منهم أحدٌ يعتذر. تسببوا بتشكيك العالم بقدرتنا على حكم أنفسنا بأنفسنا، وتسببوا بالعبث الذي استغلته وسائل الإعلام ضدنا. وما زلنا حتى الآن نبحث عن النخبة لكي تنتشلنا من هذا الحضيض، لكننا في موقف معين يجب أن نكون نحن النخبة.

الحال يبكي الحال.. عليك أن تصمد.. عليك أن تقاوم.. عليك أن تفاوض.. عليك أن تتحمل.. عليك أن تتعايش.. عليك.. عليك.. عليك.. سيقودوننا للجنون فعلًا. أنا –ومثلي الكثير– لم نعد نعرف أين نحن. كيف أميز بين الحق والباطل؟ نراهم تارة مع بعضهم يضحكون، وتارة يتصارعون! لقد أعطوا فرصة لمن تاريخهم من زجاج، كي يرمونا بالحجارة.

لذا، كان لا مفر لي من هذا إلا الهروب. وكان هذا آخر اهتمام في السياسة لي. أقفلت تلك الصفحة من حياتي كليا.. هربت من غزة، كي لا أرى الوجع يكبر وينضج أكثر. إلا أني ما زلت أشعر بالحنين لهذه المدينة.. حاضنة أوجاعي، وإلى الأشجار التي وقفت بظلها أنتظر أحدهم، والجدران التي لا تكف عن تذكيرنا بالثوابت الفلسطينية، وصورة حنظلة.. مفتاح العودة.. عائد إلى حيفا.. والكثير الكثير، فما زال أمامنا الأكثر.

لقد تعبت جدراننا من بؤس الشعارات الحزبية، والتي تلاحقها وتتفشى فيها كالسرطان. أنا أسمع أنين الناي يحن منها إلى رسومات ناجي العلي، وعبارات غسان كنفاني، وصورة القدس والمسجد الأقصى. أشعر بالسكينة نوعًا ما بإيماني المقدس بأن قضيتنا أكبر من الجميع، وما الحاصل إلا إنفلونزا سياسية سنشفى منها في النهاية. أنا مؤمن بما قاله درويش عن فلسطين: "على هذه الأرض ما يستحق الحياة"، فما زلنا نعرف الوقوف نعم، مثل أشجار الزيتون..وما يوجعني الآن أني ما زلت هاربًا من هذه الآلام، تلاحقني آلام من نوع آخر، في مقابل راحة لحظية أعيشها في أحضان مصر. أمتهن الكتابة، وأنتهج الحب والإنسانية مسارًا لها.. أبتعد عن السياسة كل البعد، كما يبتعد مريض البورفيريا عن أشعة الشمس. لكني لا أنكر على نفسي أني حين أكتب شيئًا عاطفيًا وأقرأه ثانية، أجده لا يخلو من الأثر السياسي –بغير قصد– في أركان البيان بالكناية والاستعارة، وثنايا المجاز والتشبيه.

بنيت محطة تفريغ حنيني المتنامي إلى شهد داخل مستودعات التدوين على الانترنت، محاولةً مني للخلاص من اهتمامي السياسي وغسل قلبي من أوساخه. لذا افتتحت باسمي مدونة، وبدأت أكتب بشكل مزري..كان أول نص كتبته بعنوان "ما بين الحنين والماضي!"..

ناقشت به نفسي، كي أصل لنتائج إيجابية تغنيني عن فكرة النسيان، وتعالج الوجع في ذاكرتي دون أن تستأصل شيئًا منها، فكتبت في ذلك المقال الذي ما زلت محتفظًا به حتى الآن، هو والكثير من النصوص غيره.

"إن كل الذكريات السيئة في النهاية هي جزء من لعبة الألغاز، التي تضفي طعمًا لنشوة الانتصار العصرية، والتي تليق بإشراقة أعيننا في لحظة ما. إن المفرغين من الحنين إلى الماضي مفرغون أيضًا من الأحلام. تساءلت لماذا لا نكف عن الافتراء على الحنين ومدح آفة النسيان والتاريخ بأكمله جزء من صفحة الماضي. إن لذة الفخر متعلقة بالماضي أكثر، وإن الحنين لا يرتبط فقط بالعذاب وبالصبابة، فنحن نتذكر ابتسامتنا حين نتأمل صورنا في مرحلة الطفولة ونحتاج للحديث عن بعض الذكريات لنضيف لجلسة ما رونق خاص. وإننا لو لم نتجاهل الماضي، فسنبني ألف مركبة متينة، تطفو بنا بأمان فوق أمواج الحاضر!"

ريم

بعدها بيوم عند الساعة الحادي عشر ليلًا تقريبا، ذهبت لغرفة والديّ وأنا أرتدي أناقة ضعفي. صوت حشرجة صدري يطالبني بالعودة؛ أهملته وأكملت خطواتي، أصهل بفروسية مصيري، واتجه لأعطي قراري النهائي. كانت الأفكار تدوي في رأسي كالعواصف، لكن لا بأس. طرقت باب الغرفة ودخلت.. أسندت رأسي على كتف أمي، وقلت لها وأنا أمنع عينيّ عن الهزيمة: افعلي ما ترينه مناسبًا، أنا موافقة..

"أنا موافقة"....

خرجت تلك الكلمة؟ لكن كيف؟ كيف مرت على لجان عقلي؟ هل تم التحقيق معها ومساءلتها؟ أنا يقين أنها هربت رغمًا عني من معقل ضعفي، وفازت بتغيير مصير حياتي بجدارة. مسحت عن طاولة الفؤاد كل الكتب وفناجين القهوة وباقات الورد، مسحت كل شيء، ودخلت لتكمل يأسي.

كانت رجفة ممزوجة بالخوف تلازمني قبل ظلي.. كانت مؤلمة.. مادة الألم، التي تختلط مع الروح، هي تلك النابعة من القرارات الخاطئة، والتي نعي تمامًا مدى خطورتها، ونُقبل عليها بفعل المؤثرات الخارجية. لكل فعل طاقة ألم منثورة في ضباب الاهمال. الألم.. حبر

سائل في قلم جاف مصيره بعد كل العطاء -أن يحط على جانب الطريق أو في سلة المهملات أو في مرفأ البلادة؛ المهم أنه أينما يحط سيان عنده.

لأول مرة، دموعي تـ خر مني.. تتمرد من عيني على استحياء.. والليل يكشر عن أنيابه، ويحرمني لذة السهر.

اقتربت حالة التقزز.. رجل ما ستغدو يداه ثعابين تلتف حول جسدي دون مقاومة تذكر. راية الاستسلام هي الخلاص لشعب ملّ خفافيش الظلمات، وعاش مقهورًا باسم السلام، بفعل حصار الأم والأخوين، وربما أيضًا سيجني عليه أبناؤه لصالح الخال أو يُظلم لصالح العم.. لا فرق في مسميات الظلم، فالظلم واحد طالما هناك علاقة الدم.
يا نهدي لما تكورت؟ يا جسدي لما اكتملت؟ يا عمري لما تسرعت؟.. ها هم يقتسمون على طاولة القمة أحشائي، ولا مجال للمجال، ولا عين تبصر في وجه العين.

جلست بكُحلٍ باهتٍ أمام زوجي.. زوجي الذي لا يفهم الفرق ما بين الخوف والخجلِ.. نعم، اكتملت الصفقة وخرجتُ بعدها مع أخي ساعة الظهر، ·التي أدت مهمتها بحرارة، إلى أحد الأطباء أصدقائه، لكي نستكمل إجراءات فحوص الزواج، ولكي تسير الدنيا على عكس طبيعتها بتألق. عدت بعد ذلك مع السائق للبيت، وتركت أخي يستخرج الأوراق اللازمة، ويتسامر مع صديقه على نحو التهاني والمباركة. في الطريق، صوت التكييف في السيارة الذي طالما أحببته -صار يزعجني، لدي حساسية من أي نسمة هواء تكسر اختناقي. في تلك اللحظة، أدركت أني أغير تاريخ كياني وفيسيولوجية

حواسي.
حفل زفاف يزينه البذخ. أرى الراقصين فيه أروحًا معذبة. كنت فيه مثل فقاعة يحركها النسيم، لتحتضن الشوك والصبار. يا طير السنونو، احمل ما تبقى مني من وحلٍ، واهجرني، وابنِ بيتًا في الأعالي، ولا تنسَ ترك نافذة صغيرة تطل على فلسطين.. حيث يمكن لرفاتي أن تبصر من بعيد "نبيل".

الآن أيقنت كم أمي تعذبت وتحملت وحدها وزر الألم والمكابرة على نفسها. كان كل ذلك حتى لا نتشابه في مصيرنا بفكرة الظلم التي تعرضت لها.

ما أحوجني لبديل الدمع، ما أحوجني للغضب! ذاك الشعور الذي يتفوق على الحب في صفوف المشاعر، والذي يفجر فيك كل أقباس التجاهل، و يحطم كل جدران الضغط النفسي. يأتي ليجردك من إنسانيك المرهقة، لكي يبصق الحقائق الموجعة في وجه الجميع. يقسو عليك أولا، ثم على غيرك.. يذهب بك إلى الحضيض، ترى الحضيض لهوله جنة، وسرعان ما يتضح أنه جهنم مغلفة بالفردوس. الغضب ليس سلاحا ذا حدين، بل جريمة و براءة، عفو وعقاب. لا يمكنني سرده، لكن الغضب حال انفصال الروح عن سلطانها لأجل رفاهية القلب، وأنا بحاجة للحضيض ما دام ذاك يرضى القلب! حفل زفافي الثلجي يذوب، ويحين وقت الرحيل. كلما ذابت قطعة من الوقت، زاد على الضفة المقابلة ارتعادي وخوفي، وتخيلت كيف يهاجم الذئب الغزال بضراوة.

يفصلني مع الذوبان هاجس الألم، والقرف الذي سينتصر الليلة في كلاسيكو فض البكارة!

آدم

كان باقيًا على دوامي الجامعي في مصر أكثر من شهرين، والفراغ لا يستهويني، فلا مفر من البحث عن شيء أضفي فيه قيمة للوقت. كان الحل سهلًا أمامي، كنت أتمشى في محيط الحي الذي أقطن به في مدينة 6 أكتوبر التابعة لمحافظة الجيزة، والتي بنيت في الأصل لتقليل الكثافة السكانية المتزايدة في مدينة القاهرة.

الأحياء هنا منظمة ومتشابهة جدًا، يضيع فيها الزائر لها لأول مرة. يوجد الكثير من المطاعم والمقاهي، بالإضافة للمعاهد والمراكز التعليمية.

أثناء تجوالي، تعثرت بإعلان عن دورة للغة الإنجليزية في أحد المراكز، وقد ذكر في الإعلان أن طاقم التدريس هم مدرسون أجانب، وهذا ما شجعني للالتحاق بها، بصرف النظر عن حاجتي لتقوية مستواي في اللغة الإنجليزية.

سجلت في المعهد، وحضرت الدرس الأول. وبالفعل، معلمتان من أوروبا هما من كانتا تقومان بتدريسي اللغة في المعهد؛ إحداهما اسمها "لي يا ني- Liene " من لاتفيا – دولة تقع في منطقة بحر البلطيق في أوروبا الشمالية، تبلغ من العمر 27 عام، شقراء وعملية جدًا، ومصابة بهوس السفر.. تفضل العمل عن الطعام، تُعلم اللغة الإنجليزية في أربع أماكن مختلفة بشكل يومي، ومع ذلك كانت تستيقظ مبكرًا،

وتجد متسعًا من الوقت لكي تركض بشكل يومي في شوارع الحي، الهادئة ساعات الصباح. "لي يا ني" امرأة نشيطة جدًا، مع أن طعامها اليومي لا يكفي لطفل.

أعرف كل تلك المعلومات عنها وأكثر، كونها صارت إحدى صديقاتي المقربات جدًا؛ فقد كنا نركض معًا، ونخرج معًا. تعرفت من خلالها على الكثير من الأصدقاء الذين ما زالوا معي حتى هذه اللحظة. تعلمت منها ما هو أكثر من اللغة، فقد كانت ناشطة في إحدى مؤسسات المجتمع المدني المهتمة بالتبادل الثقافي "الأوربي – العربي".

وتعرفت من المعهد أيضًا على طالب فلسطيني يدعى محمد، يدرس الطب البشري في إحدى الجامعات الخاصة في مدينة 6 أكتوبر. وقتها كان يبحث عن شريك لكي يقيم معه ويتقاسم معه إيجار الشقة. كان لديه غرفة فارغة، وكنت أنا آنذاك أبحث عن شقة، لذا أقمت معه، وصار صديقي وزميلي في السكن.

يومًا بعد يوم، انخرطت مع الحياة في مصر، وصرت شيئًا فشيئًا بعيدًا عن الحنين والسياسة، وقريبًا من نفسي، أشغل وقتي بكل ممتع أو مفيد. واستطعت أن أهزم الفراغ وحدة التفكير في حياتي شر هزيمة، مما فجر بي طاقة كبيرة وحفز عقلي لأبدع وأنجز في الكثير من المواقع، وكل هذا بدافع الهروب من التفكير بماضٍ أليم لا أكثر.

ريم

وصلت إلى مدخل بيته.. بيت الرجل الذي من المفترض أن أسميه زوجي من الآن. كان أهلي معي.. دخلنا إلى البيت، وانهالت عليّ وعلى زوجي التبريكات والتماني بالرفاء والبنين. كانت الدموع في عيون ليلى وأمي لا تجف، وكان غانم يشير إليهما بين الفينة والأخرى حتى تكفا عن البكاء وتمسحا دموعهما. هو لا يدري أن الدموع لا سلطان عليها.

كان تقودني خفيةً نزعة عنيفة أن أعض ردن ثيابي، وأقطع بأسناني فستاني.. مع ذلك لم أفعل. أول ما تعلمته في هذا اليوم البلادة واللامبالاة! مثلي – صرت– مثل أسيرٍ ملّ سجانه من تعذيبه، وملّ هو من الألم، وصارت ضربات السوط على ظهره تطبع علامات لا أكثر.. علامات قاسية، تؤذي السجان ولا تؤذيني.

خرج أبي أولًا، ثم خرجت ليلى وأمي مع غانم.. كم وددت لو أخرج معهم!....الخوف والرعب يتملكانني بشكل لم يسبق له مثيل في حياتي. ها هي الفريسة الميتة جاهزة، والاختلاف الوراد الآن كيف يبدأ مسلسل الانقضاض. حاول تقبيلي، فتحاشيته، وتحججت بالحمام. كان مرحلة هروب لحظية، فلا مفر من مواجهة القرف مجددًا.

طرق باب الحمام، واستأذن بالدخول، فركضت خلف الستارة وقلت له مرتبكة:

اخرج بعد إذنك، آسفة، أعطني بعض الوقت.

ترك على الباب لفظًا نابيًا، حاملًا الكلام على مضض، وخرج.. بمرارة أكملت حمامي. كان يخالجني إحساس غريب بالطفولة والفرح وأنا عارية تحت قطرات الماء. هذا الشيء كان يمنحني الشعور بالسعادة، كان يخدرني، يخدرني جدًا، ويسترني من كل عري. قرأت مرة أن الموضوع يستمر لإحدى عشرة دقيقة، فأخذت أصبر نفسي بالاحتمالات والتشبيهات. كنت أقول في نفسي لا يليق أن أظل أندب لأجل إحدى عشرة دقيقة من الألم والقرف، فلأتخيلها أغنية مزعجة تثير تقززي وتقشعر مسامات جلدي.. في النهاية دقائق وتمضي..

أنهيت حمامي، وكنت أرتدي قميص نومٍ لا يلائم شكلي في أحلامي مع رجل أحلامي. أمي اختارته لي لأرتديه في ليلة الدخلة. ساقاي كانتا تسبحان في عري الهواء. مرتحلة عن عذوبتي، خرجت إلى غرفة النوم. كانت تنتظرني صدمة من نوع آخر، من ذلك الشيء، الذي من المتوقع حصوله، ومع ذلك إن حصل تتفاجأ منه لدرجة الصدمة. لم أدر حينها هل أهرب أو أتقدم.. تسمرت مكاني، البحر خلفك والعدو أمامك. وما يزيد الطين بلة، أنك في الحالتين لن تسعفك أي معجزة، إلا إذا انشقت السماء وابتلعتك من على الأرض. صوت التكييف يصرخ بشكل هستيري، ويطلق نسمات هواء

صحراوية باردة جدًا، تفكك مفاصل جسدي وتطرقها في بعضها، وتعاود الكرّة من جديد. كان يرسم ضحكة، لم أر في بشاعتها من قبل في حياتي. كان بإمكاني تجاوزها، لكن ما رأيته أمامي أثار فزعي. طوال حياتي لم أدخل في حوار يتعلق بالجنس أبدًا؛ كان الحديث على هذا النحو محظورا بالنسبة لي، سواء من نفسي أو من تربيتي والمجتمع، لذا صار مع الوقت هذا الموضوع مثل عذاب القبر! معقودة اللسان والجسد أقف بلا حراك، بصلابة قطة خائفة أداري فزعي.. رجلٌ يحدق بي بشكل مخيف، يتفحص جسدي بتدقيق، يجلس وفمه مفتوح كأنه يلهث لشيء ما، وفوق كل هذا يجلس كما ولدته أمه، عاريًا من كل شيء!

آدم

أجيد الهروب من المعارك الخاسرة، لا أعارض المجازفة في حروب "ما بين بينين". تلك فلسفتي في حياة تعلمت فيها ملء ثلاثة أرباع الكأس بالعقلانية، والربع الأخير منه بالجنون.

أحاول ألا أغرق في عمق الكون، كي لا أتوه في مراهقة المؤامرات و نظريات البطريق وقربان السلام. مع ذلك ،كانت صديقتي اللاتيفية "لي ياني" تحفزني على ذلك، وتستعرض أمامي قدراتها على التبحر في علوم الدين وأسرار الوجود. كانت قارئة من الطراز الأول، بالإضافة لكونها مهتمة بدراسة العلوم الإسلامية والشرقية بشكل عام. بسهولة كانت تقنعني وتنتصر عليّ في أحابيل الحوار. لكني أدركت مؤخرًا أن القراءة والفهم هي ما تعطيك شخصية وحضورًا قويًا في أي مكان.

كانت "لي ياني" تصدمني بأفكارها وأطروحاتها في أي نقاش؛ بل وحتى معرفتها بالتفاصيل الصغيرة جدًا عن حياتنا كشرقيين. كيف لامرأة أوربية أن تعرف أدق التفاصيل عن مشاكل المرأة في العالم العربي؟! حتى نظرتها لهذا الموضوع مختلفة، لم يسبق لي بالمطلق أن حاولت رؤيتها من هذه الزاوية. الزواج، الطلاق، تعدد الزوجات، عمل المرأة، قيادة المرأة، التعليم، الاضطهاد، غلبة العادات والتقاليد

على الدين.. والكثير الكثير من المواضيع، فقد كنا نلتقي بشكل يومي، وكل يوم تفجر "لي ياني" موضوع جديد. لكني الحمد لله كنت أنجو دائمًا من الحديث السياسي معها، باستثناء كرهها لروسيا! حاولت مرة أن أستفرد عضلاتي السياسية بمدح روسيا. كان ذلك من منطلق أن أي أحد ضد أمريكا فهو حتمًا صديق. يا إلهي، ماذا حدث بعد ذلك الحوار؟ استطاعت تقريبًا أن تجعلني أتقيأ إذا ما سمعت شيئًا عن روسيا، وأنا من قبل كراهيتي لأمريكا مزروعة منذ فجر ميلادي. من هذا المنطلق، تعلمت ألا أطبطب على أكتاف أي ظالم، مهما تحلى بالفضيلة من جانبٍ أو أكثر. تخلصت من جرثومة الضعف، وأن أكف عن تفضيل السيء عن الأسوأ. لم أكن أدرك أن بمقدوري كإنسان أن أقول لا في وجه الاثنين من قبل. كنت مغيبًا كليًا عن فكرة أن الحق لا يتجزأ، ولا يجب أن ينقص منه شيئًا؛ فمن يقبل أن يتنازل عن جزء من حقه مرة، سيحترف الخنوع والخضوع.

كنت قد فعّلت مبدأ القياس في جميع أفكاري. أطبق فكرة معينة على آلاف المواضيع، أستذكرها وأربطها بأشياء كانت تمر على ذهني مرور سائح على محل زهور. منذ صغري، كانت رسومات ناجي العلي في كل مكان، غير أني في الأصل أحمل ميدالية لشخصية حنظلة الكاريكاتيرية، التي رسمها ناجي العلي، والتي صارت رمزًا للنضال والقضية الفلسطينية. كان هناك جملة غالبة على رسومات ناجي يقول فيها "كامل التراب الفلسطيني". إذًا لم تكن هذه الجملة عبثًا، بل تحمل أعمق مما تخيلت، بل في الأصل تجاهلنا لما تعنيه عن قصد أو غير قصد جعلنا نتفاوض على بقايا الأرض والقضية.

ها أنا من جديد أعود للحديث عن السياسة للمرة الألف. أنا أُحمّل السياسة مسؤولية جريمة فوضوية أحلامي وكتاباتي وحياتي. في أحد الأيام، خرجت مع "لي ياني" للرقص في نادي الجاز في الزمالك، حيث كانت هناك حفلة لفرقة موسيقية من الصين، تقدم عروضا في مختلف الدول. تعرفت هناك على حسام، أحد أصدقاء "لي ياني". هو مصري يعيش في مدينة عين شمس. أصبح من بعد ذلك اليوم أحد أصدقائي المقربين.

كانت "لي ياني" تريد منه الاستفسار عن المراكز التي تدرس اللغة العربية، لكن باللغة الفصحى. وفي السياق، أخبرته أن صديقتها سارة ستأتي لمصر وتقيم معها لفترة مؤقتة، وذكرت أيضا أن سارة هي عربية من أصول خليجية، لكنها ولدت في المملكة المتحدة البريطانية، وعاشت وترعرعت هناك في مدينة إدنبرة "**Edinburg**" عاصمة اسكتلندا.

سارة تعمل مع "لي ياني" في المؤسسة التي تهتم بالتبادل الثقافي ما بين الشرق والغرب. ما فهمته حينها أنها تجيد اللغة العربية، لكنها ترغب في تعلم الكتابة باللغة الفصحى والكتابة الصحفية. وبشكل لا إرادي، تدخلت في الحوار الدائر بين "لي ياني" وحسام، وتطوعت بتعليمها اللغة الفصحي، وتقريبًا اتفقنا على ذلك.

يومان وستصل سارة القاهرة. ستقيم في فندق أول ثلاث أيام، ثم ستذهب مع "لي ياني" إلى شرم الشيخ للاستجمام والاستمتاع بالغوص والبحر الأحمر، وبعدها ستعود الاثنتان إلى مدينة 6 أكتوبر.

عرضت عليا "لي يايْ" الذهاب معها إلى شرم الشيخ، لكني اعتذرت. لم يكن معي مال كافٍ لقضاء رحلة كهذه، وأنا معتاد أن أتجنب اقتراض المال من أحد إلا للضرورة، ورحلة كهذه لم تكن في أولويات اهتمامي.

في اليوم الذي ذهبت فيه "لي يايْ" مع سارة، كتبت مقالي الثاني على مدونتي، ولاحظت وجود متابعة لمدونتي، كانت أول شخص يتابع كتاباتي، وكانت تسمي نفسها باسم "رحيل القمر". كانت قد تركت تعليقًا مقتبسًا من نص لمحمود درويش على مقالتي عن الحنين.

"الحنين ندبة في القلب، و بصمة بلد على جسد. لكن لا أحد يحن إلى جرحه، لا أحد يحن إلى وجع أو كابوس، بل يحن إلى ما قبله، إلى زمان لا ألم فيه سوى ألم الملذات الأولى التي تذوّب الوقت كقطعة سكر في فنجان شاي".

كان واضحًا من توقيت نشر التعليق أنه كتب في منتصف الليل، الساعة الثانية تقريبًا. شخص ما أدمن الوجع، فمن يتحدث عن الحنين في مثل هذا الوقت، بلا شك روحه معذبة بالماضي ومشانق الشوق. وختمت تعليقها بنص يعكس مدى تعلقها بكتابات محمود درويش. نصبح على وطن!

وضعت مؤشر الفارة في خانة التعليقات، وأضفت تعليقا لها، كتبت فيه شيئًا مما قرأته عن الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه: "الحنين، ليس الى بلد، أو إلى عائلة و موطن، فما عندي هذا ولا ذاك. لكن الحنين أني بلا موطن."

وعلى طريقة غسان كنفاني، ختمت تعليقي مضيفًا بالعامية لما سبق:
"ما فش حد بنام بصحى بلاقي وطن يا رحيل!"

أنا أحب جدًا المناظرات في الردود التي تكون بهذا الشكل. تثير شهيتي للاطلاع، وتربت على ذاكرتي كي لا تنام أو تسهو عما قرأت. تعلمت هذا الطبع من شهد، فهي خير من يبدع في هذا الشكل من الحوار.

أنا لا أهمل ما قرأته. حين أقرأ شيئا، يلازمني دفتر أدون فيه الملاحظات والاقتباسات التي أعجبتني، وأناقش بها مع أصدقائي والآخرين. هذا ما جعلني أكثر اجتماعية من غيري، مع أني لا مانع لدي من حياة العزلة، لكن هذه الطريقة تجعلني أهضم أفكار الكتاب بيسرٍ، وتجعلني شيئًا فشيئا أهندم حديثي وأفكاري، وحتى مظهري. أظن أيضًا أن أناقة المرأة الدائمة غالبًا ما تكون بسبب طهارة روحها المعجونة بالقراءة منذ الصغر، ذاك الشيء الذي يجعل من قلبها سمفونية خالدة، تأثيرها مطبوع في حياة أحدهم، وأحدهم ما زال يطبعه في حياة الآخرين..بالضبط كما كانت شهد.

اتصلت بي "لي يايْ" من شرم الشيخ ساعة الظهيرة. كانت ترغب أن تعود في المساء، ولكنها لم تكن تستطيع أن تذهب لحجز تذاكر العودة في محطة باصات "السوبر جيت"، ومن ثم العودة لشرم مرة أخرى، ومن ثم العودة إلى الباصات في المساء.

فكان أسهل لها أن أحجز تذاكر العودة من أحد المكاتب السياحية في مدينة أكتوبر، والتي لا تبعد إلا دقائق معدودة عن شقتي، فلم أمانع. وبالفعل، ذهبت إلى المكتب، وقمت بإجراءات الحجز. في صباح اليوم الثاني، وصلت إلى القاهرة. أخذت سيارة وحملت أغراضها هي وسارة، ووصلنا إلى البيت.

حدثتني على الهاتف المحمول وهي في طريقها وقالت: أنا وسارة الآن عند مول العرب، وسنصل إلى شقتنا قريبًا. سنخلد للنوم لأننا مرهقتان جدًا من السفر. سنلتقي الليلة في القهوة التي اعتدنا أن نجتمع بها دائمًا.

طقوسي الخامدة في التحضيرات والتأنق لمقابلة امرأة صحت من جديد مع هذه المكالمة. ربما كنت أخطط آنذاك لمشروع حُب جديد. فمع التغيرات الجذرية في أفكاري وشخصيتي، ظننت أن امرأة عربية بخلطة فكرية تجمع ما بين الشرق والغرب ستكون خير دواء لقلبي الكبريتي، الذي ينتظر شرارة لينفجر في وجه إحداهن بالعواطف. أردت بشدة أن أبحث عن الحب، لا أن أتعثر به. ما ضرر لو تخلصت لوهلة من صورة الحب المحتكرة في الروايات؟ مثلما يبحث المتصوف في الوجود، سأبحث عن الحب.. مثلما تفتش الفراشات عن الرحيق بين الأزهار، سأفتش عن الحب. فقدت الحب، بعد أن اعتدت عليه.. لا أرى ضررا في البحث عنه من جديد.

من حق الجميع ذلك، حتى المطلقات اللواتي لا يجرؤن على ذلك، من حقهن.. كل الناس عليهم استبدال الدم بالحب، وهذا ليس بشيء

أخترعه.. قيل هذا الكلام كثيرًا، لكنه لم يصل لوعي إلا القليل جدًا.. ما الداء في أن يكون الحب دواء ؟

بسيط، جميل، مسالم، إنساني، صديق السعادة والألم الجميل.. لا بد لجينات الحب في دمنا أن تنشط وتحارب النرجسية والكراهية، وأن تضع حدًا لويلات الحزبية الكريهة، لهذا أبحث عن الحب، وكل يوم يزداد إيماني.

حتى مفهومي للحب توسع، لم يعد مختزلًا في امرأة، بل صار أسلوب حياة، أدى بطبيعة الحال إلى اختلاف كلي في تعاملي مع الناس، ومع نفسي ومظهري من الداخل والخارج، كأن الحب هو عملية التجميل الوحيدة التي تصلح للقلب والعقل معًا. جلست على الأريكة كالقرفصاء، أشاهد التلفاز ولا أشاهده، أنتظر أن تحادثني "لي ياني"، وقد كنت في كامل جاهزيتي. كنت أحاول تهذيب عقلي من هذا الجنون، كنت طفلًا بكل تصرفاتي آنذاك، وما إن أتذكر حالي آنذاك، حتى أنكب بالضحك على نفسي وأسخر من هوسي باللقاء.

اتصلت "لي ياني"، وأخبرتني أنها ستكون في المطعم خلال ساعة. شتمت في سري "لي ياني".. ساعة! هل ينقضي ساعة أخرى؟ الانتظار برمته أمرٌ يقلقني ويجعلني عصبيًا، لذا تركت البيت وذهبت أتصفح شوارع وأقارن بين شوارع غزة وشوارع مدينة أكتوبر، عساني أتعثر بوجه شبه واحد. أقف عند عمارة من خمس طوابق، وأقول في نفسي: أراهن بأن عدد سكان هذه البناية لن يتجاوز في أفضل الأحوال خمسة

عشر شخصا، ولو كانت هذه العمارة في غزة، لكان عدد السكان هناك ستين شخصا تقريبًا. وبعد ذلك، أقارنها بالبنايات في القاهرة، واصل لنتيجة مقاربة، وفي أغلب الأحوال أجد القاهرة أشد زحامًا، وأستنتج أخيرًا أن هذا ما يجعل مدينة 6 أكتوبر جميلة وهادئة وتحتوي على مساحات جميلة جدًا من الأشجار والأزهار أمام كل بيت. هذا الشيء بحد ذاته من مقاييس الجمال في المدينة.

6 أكتوبر جميلة، تحتضن العرب من كل الجنسيات، وجمر الغربة فيها أقل حرارة من أي مكان. ولأجل طبيعة المصريين الاجتماعية، تجد نفسك صديق الجميع هنا. أنا عن نفسي، صرت فيها صديقا لكل زملائي المصريين في الجامعة، وحتى الباعة هنا، من الجزار لبائع الفاكهة والخضروات، والعمال الذين يعملون في المقاهي.. من هذا المنطلق، آمنت أن كون مصر أمًا للدنيا لم يكن عبثًا..في أحداث ثورة 25 يناير، أرسلت معظم السفارات باصات نقل خاصة، لكي تقل الطلاب العرب الذين يدرسون في الجامعات المصرية إلى مطار القاهرة، حيث سيتم إعادتهم لبلادهم. وأرسلت السفارة الفلسطينية رسالة للقنوات التلفزيونية الفلسطينية، تحتوي على أرقام هواتف للسفارة للاتصال بها في حال حدث مكروه للطلاب الفلسطينيين الذين يعيشون في مصر!

بطبيعة الحال، ونظرًا للظرف الأمني والعدد الكبير جدًا من الطلاب الفلسطينيين في المدينة، لم يكن هناك مفر من السفر والعودة إلى البلاد.

ما حدث حينذاك، أن انتقل الطلاب من الأحياء البعيدة للإقامة عند أصدقائهم في الأحياء القريبة والأكثر أمانا. بعضهم قبعوا في الشقق، ولم يخرجوا أبدًا منها إلا لشراء شيء ما. والبعض الآخر كان يقف جنبًا إلى جنب مع المصريين في اللجان الشعبية، التي كانت تحمي البيوت والمحلات. كانت الشائعات تمطر كل دقيقة، لكن التنظيم السكني الجيد للأحياء جعل البوابين -والذين كانوا يعرفون بعضهم البعض- يسيطرون على مداخل الأحياء جميعها بشكل منظم. كان شعورا جميلا في تلك الأوقات، رؤية الفلسطينيين يقفون جنبًا إلى جنب مع المصريين لحماية البيوت والشقق السكنية.. تلك الأيام لا أنساها أبدًا.

المهم، أني ظللت أمشي في الشوارع، التي مشيتها مرارًا وتكرارًا، أنتظر اتصال صديقتي، لتؤكد لي وصلها للمكان الذي اتفقنا على الالتقاء فيه.

ظللت أعيد الكرّة، وأمشط تفاصيل الأرصفة، وأشاكس زهور الزينة التي عقدت اتفاقية سلام مع حرارة الشمس، حتى جاءني الاتصال من "لي يانج" تسألني أين أنا الآن، فقد وصلت مع سارة إلى "الكافيه" أخيرًا.

ريم

رجلٌ عارٍ من كل شيء يقف أمامي لأول مرة في حياتي.. يا لسوء حظي الذي لن تنجده حتى بركة الدراويش.

رجلٌ عارٍ، امرأة نصف عارية، وحالة قرف لا دين لها، أداريها بجهد لا طاقة لي به ولا حول. كنت متعبة، كأني أحمل على ظهري جبلا ثقيلٌ ظله، يغطي قرية بكاملها. الليل فطيم أسود، بين أسوار طروادة محاصرةٌ أنا مع ذئب، لا أعلم هل يفترض أن أغفر له فطرته القائمة، أم عليّ أن أغيّر فطرتي لتلائم شهيته؟

يا لغتي، توقفي عن جرحي بالمجاز، وارحميني ولا تجعلي الجُرح أكبر، ولا تجعلي الجُرح أعمق. تلاشت صور الأطفال، والكلام المعسول الذي أغويت لبرهة نفسي به حتى لا أشحب أكثر. كيف أطلب من نفسي أن أكون عاقلة في شيءٍ لا علاقة له بالعقل؟ كيف؟.. لا أدري. سألت نفسي ألف مرة.

قطع شرودي آمرًا: تعالي.

ظللت واقفة.. مصدومة.. أرجف.. لا أشعر برغبة إلا في الهروب.

كرر مرة أخرى أمره: "تعالي، بَسك دلع" تقدم نحوي، شدني من يدي نحو السرير.. صوت أنفاسه يتصاعد كلما اقتربت أكثر منه.. كان الصوت أشبه بلهاث حيواني.

حركات مشمئزة سريعة كانت تدور حولي. لم أكن مستعدة، لا على المستوى النفسي ولا الجسدي.. كنت مرهقة جدًا من حفل الزفاف، لم تتجاوز فترة الخطوبة بيننا سوى لقاء مع محرمٍ، أو حديث عادي جدًا على الهاتف. لم يكن هناك أي انسجام بيننا، ولم يتطرق أحد لهذا الموضوع معي غير أمي، وأمي كل نصائحها كانت أن أقدم قربان الطاعة لكل ما يأمرني به، وأن أكون عند حسن طلبه.

وإن كان هذا الأمر رغمًا عني، وأنا غير متهيئة له أبدًا، فقد كان على العكس هو. كان ثائرًا جدًا في تلك اللحظة.

تلعثمت بكلمات لا أدري كيف انبسست بها وهو يجذبني إلى السرير:

"مقدر.. مقدر.. تعبانة من حفلة العرس، ممكن تأجل هالشيء لبكرا"

أمسك يديّ الاثنتين بشدة، وقال لي بالحرف الواحد:

" لا عاد تقولين لا ل بغيتك" اكتمل نصاب الرعب.. لا يحق لي أن أقاوم أصلا!.. رائحة أنفاسه المعجونة برائحة السجائر تغتال أنفي، أشعر برغبة شديدة في عضه وهو يرشق كالمسعور قبلات على جسدي.كيف أغسل عفنه عني الآن، يُوشم أثره على عنقي بشفتيه، اللتين يحيط بهما الشوك من كل جهة. أتألم بحق وهو يسلخ عني ثيابي، ويباعد فخذي عن بعضها، ويدس رأسه بينهما، آه.. آه.. لا أستطيع وصف اشمئزازي حينذاك. شيئا فشيئا، نزل من عيني الدمع، ليسعفني قليلًا من ورطة مع سبق إصرار وترصد.

أيتها السماء المرصعة بالقطن، والمعبأة بزرقة الأنهار.. ارحميني وأخرجيني من هذا الهول النهز.. انتشلي روحي وقلبي مني، ودعي لهم

جسدي بحسيسه ويدكيه [illegible] حول الظهر
[illegible] على [illegible] أكثر... [illegible]
[illegible] أكثر، [illegible]
[illegible] من [illegible] الأمر الذي جعلني أتغاضى عن [illegible]
[illegible]

أصبح [illegible] إلى كتفي ويضغط بيده عليه. ثم يسحب يده
[illegible] إلى [illegible] حتى صارت خطوط حمراء بارزة على جلد كتفي
[illegible] جسده إلى ذروة [illegible] وشعرت بما يحرقني
[illegible] أكثر وأكثر وأكثر وأكثر.. الدقائق [illegible]
على هذا الحال إلى أن حدث شيء ما.. هناك صفحة [illegible] تشابه
[illegible] إلى آخر قطرة.. ماذا يجري لي؟ كيف تضاعفت
سيرورة الرعب والارتعاد في جسدي هذه السرعة؟ ماذا يريد مني؟
هل هذه الملامح المشوهة على وجه صفحة سببها أنا أو هو؟
كانت الأفكار تجول في رأسي بشكل هستيري. سيل من الأفكار لا
يجوز احتواؤه في دقائق.

لحظات مريبة مرعبة أخذت فيها أسترجع نصائح أمي المكررة على مدار حياتي. "تعالي من حالك على جسمك". "لا تمشي هكذا بل امشي هكذا". "لا ترتدي هذه الثياب وارتدي ثيابا فضفاضة". "ممنوع عليك ركوب الخيل". "ممنوع عليك ركوب العجلة".. عشرات الجمل الناهية والآمرة، سواء كان منها أو من غانم، سواء كان لي أو للملي. لمعت صورة نبيل يبتسم أمامي. كان ذلك حارقًا جدًا.. وتوالت صوره.. تارة وهي تجادلني عن كاتب وكتاب، وتارة

وهو يتصحى بقراءة لشاعر ويتهادى عن آخر.. صورة وهو يتحادث معي في الكتب التي اشتريناها من مكتبتهم، وأنا أسير وهو يسير، ونريد لقاءنا دقائق أخرى.

ثم تأتي صورة غانم وهو ينهاني عن النظر يمينًا أو يسارًا، ويأمرني ألا أحدق بشيء مطولًا، ويتأكد من حفظي لقائمة المحرمات والمحظورات.. لم أكن متمردة لكي ألاقي كل هذا، وهل لو كنت كذلك، لوصلت لهذا الحال؟

كانت صديقتي سارة المقيمة في بريطانيا قد نصحتني بالدراسة هناك. ترددت حينها، وخفت كثيرًا أن أترك أمي وأخي.. ليتني سمعت نصيحتها.. وما نفع التمني وفوق جسمي جسم مقرز.. كان أخي يتهاوى على لقاء سارة، في الوقت الذي يذوب شوقًا لرؤيتها. هي لم تكن معجبة به أبدًا، بل كانت تنفر جدًا منه. غانم يخاف أن تؤثر سارة بأفكارها المتحررة عليّ. هي من مواليد بريطانيا، ولا تأتي إلى الخليج إلا كزيارات قصيرة في فترات متباعدة، خصوصًا بعدما عاشت سنة كاملة في الخليج، عندما كانت تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا. أنا أعتبر سارة من صديقاتي المقربات. لو سمعت كلامها وذهبت للدراسة هناك لما حصل ما أنا متورطة به الآن بلا خلاص. يا ندمي الذي لا يستطيب، يكفيني ما أنا فيه. عادت صورة نبيل تظهر أمامي، لكن هذه المرة بوجه البوكر.. لا ملامح ولا تعبيرات فيها. لم أفهم هذا الظهور، صرت مشلولة تقريبًا، لا إرادة أتعكز عليها. لكني أحسست بالجسد الملقى فوقي يرحل.. ثم يعود غاضبًا، ليلطمني على وجهي بعنف ويصرخ قائلًا:

" ليش ما نزل دم؟

إنت مش بنت يا ****، إنت مش بنت يا كلبة، إنت مش بنت يا بنت الكلب، تضحكون علي، تستغفلوني؟"

انهار عليّ بالضرب،وانهرتُ أنا مع الألم..

آدم

أجبتُ على الهاتف المحمول، وأخبرت "لي ياني" أني قد خرجت من البيت منذ خمس دقائق، وسأكون في المكان المنشود خلال عشر دقائق. وبالفعل صرت هناك.. دخلت "الكافيه"، ورأيت "لي ياني".. سلمت عليها وعلى سارة، وبدأت أتحدث مع "لي ياني" عن الرحلة، وأتجاهل وجود سارة عن غير قصد، وكان هذا أول انطباع سيء عني طُبع على وجه سارة.

علاقتي مع "لي ياني" تطورت من مرحلة الرهبة والخجل إلى الصداقة، إلى تبادل الخبرات والثقافات، ثم إلى السخرية والضحك من أي شيء. يكفي أن نصمت لثوانٍ، حتى ننفجر بعدها ضحكًا بلا سبب.

أصبحت علاقتنا كوميدية نوعًا ما، أشبه بتلك التي عرضها المسلسل الأمريكي الأصدقاء "**Friends**". طلبت من النادل "لاتيه سكر زيادة"، وطلبت "لي ياني" قهوة اسبرسو دوبل، أما سارة فقد فضلت أن تشرب عصيرا باردا. هذا اللقاء كان مفروضا من أجل سارة، لكنني أنا و"لي ياني" أفسدنا الجلسة، وكانت لدينا قابلية للضحك من أي شيء.

تعلمنا من أصدقائنا المصريين "الألش"، وهي دعابة لفظية نرددها بتلقائية، في جو عصبي أو ساخر، وهي بمعظمها تكون مستفزة جدًا

للآخرين الذين يشاركونا اللقاء، وتكون بتحريف حرف من الكلمة أو قول كلمة أخرى بنفس الوزن والقافية. مثلًا في فيلم متحف الشمع لإسماعيل ياسين كان هناك مشهد يمر فيه إسماعيل ياسين من بين التماثيل والمومياء، فيقول صديقه: "وآدي راجل محنط"، فيرد إسماعيل ياسين: "محنط عبد الوهاب". هذا النوع من الحديث كانت تعشقه "لي يايي"، بل وكادت تتفوق على أصدقائنا المصريين فيه. هذا كان كفيلا بأن يجعل سارة تضجر منا لأبعد حد.

أحضر النادل "لاتيه" لي، والقهوة "للي يايي" والعصير لسارة. أخذت أنا رشفة من اللاتيه، و "لي يايي" من القهوة، وقلت عن "اللاتيه" "مرّ جدًا"، وقالت "لي يايي" عن القهوة اسبرسو "حلوة جدًا".

ثم بدلنا مع بعضنا البعض القهوة باللاتيه، وأكملنا الحديث، وكأن شيئًا لم يكن.

صمتت سارة من هذا التصرف لثوانٍ.. ثم أخذت من يد "لي يايي" اللاتيه وتذوقته، وقالت: نعم بالفعل مرّ جدًا.

كانت ملامحها جدية، ولو أني لم أتذوق اللاتيه لصدقت أنه مرّ بالفعل. أخذت بنفس الطريقة في تذوق العصير، وقالت: "جيدة، سكرها زيادة". وبدلت عصيرها بقهوتي السادة!

كان هذا الموقف كفيلًا بأن تندمج كليًا في الحوار والضحك أيضًا. وأخذنا الحديث والسخرية من قصص من واقع الحياة في بلادنا، حتى أن "لي يا يي" شاركتنا هذا النمط الساخر من الحديث. تطرقنا لفكرة

الزواج وتعدد الزوجات. قالت "لي يا يي" إنها مستحيل أن تتزوج إلا بعد الثلاثين من عمرها، أما سارة فأخذت تتحدث عن الزواج في بلادها، وكيف يتم الزواج من العوائل والقبائل وعواقبه، دون الأخذ بعين الاعتبار رأي العروس. حكت عن إحدى صديقاتها، التي تزوجت من رجل مقتدر من نفس قبيلتها، وذلك لأن أخاها اكتشف أنها معجبة بشاب فلسطيني كان يعمل في مكتبة ببلادهم، وكيف كانت صديقتها تستنجد بها من وقت لآخر. سردت علينا ماذا حدث لصديقتها في ليلة الدخلة، وكيف قام زوجها بضربها وتشويه وجهها، ذلك لأن دمًا لم ينزل من جرح بكارتها، فاتهم عذريتها وطهارتها، وظل يضربها إلى أن فقدت الوعي.

حكت عن الأذى النفسي من أهلها، إلى أن اكتشف أحدهم القدرة على التفكير في عقله واقترح أن يفحصوها عند الطبيب الشرعي، حينها تفاجأوا جميعًا بأنها ما زالت عذراء، وأن غشاء البكارة لديها مطاطي، لا يمكن فضه إلا بعد ممارسة العملية الجنسية عدة مرات، أو بواسطة الفض الجراحي من قبل الطبيب الشرعي، والذي يقوم بعمله في وجود الزوج...

حالة حزن من تلك التي تعم في نهاية كل الحوارات التي تبدأ بالضحك حلت علينا. لا أدري ما الحكمة في ذلك، لكن الحوار انتهى لشيء مس إنسانيتنا بشكلٍ موجعٍ إلى حد كبير.

ريم

لم يداوِ أحدٌ سقمي. أقلقني أهلي بالظلم واللعنات، فزاد فتق الجرح أكثر. لا أحد يرق لوجعي. استيقظت على نفسي في المستشفى، وتحاشتني أمي بنظرتها الشاحبة القاسية، التي لم أر ملامحها ترميها من قبل.

كان الشحن ونظرة أمي كفيلتان بأن تعيدا لي استيعابي في ثوانٍ. أمي لم تستفسر عن سلامتي حين صحوت من غيبوبتي.. لم تسألني عما أصابني، بل قصمت ظهري بسؤال قهر حياتي للأبد:

" ليش ما قلت إنك معطوبة؟ ليش ما قلتيلي يا كلبة، ليش كان تصرفت، جبتيلنا الفضيحة.."

من كثرة العنف اللفظي الذي تعرضت له في تلك الأيام، صرت أتحسس وجهي أتأكد من ملامحي.. هل هناك وجه شبه بيني وبين الكلبة؟، لما ينعتوني بذلك دائمًا؟ هل يقصدون الشكل، أم يقصدون الجانب الجنسي في حياة الكلاب؟ لا بد أنه كذلك. فالكلبة تعاشر عشرات الكلاب بلا حسيب ولا رقيب.. ما أوجع هذا الاستنتاج، ما ألعن هذا الوصف، ما أنذل هذا التشبيه. أختي ليلي أيضًا مختفية، إنني أتوسم خيرًا بوجودها، لا يمكنها أن تصدق ما قيل عني.. هي أكثر من يعرف كم أنا متمسكة بأخلاقي وفضائلي التي تقتدي هي بها. آه.. نسيت بأني كلبة، ولا تجوز الشفقة على إناث الكلاب.

أمي تحاشى تعاتبني، وأنا أحاول عبثًا أن أقنعها أن أحدًا لم يلمسني من قبل، وأني لم أختلِ مع رجلٍ في حياتي أبدًا. معدتي كانت تؤلمني جدًا، وأضلاعي إن ما حركتها تدق أجراس الوجع في مفاصل جسدي. تخيلت مسبقًا شكلي على المرآة بمعطيات الألم المنحن على شغاف وجهي.

فقدت إحساسي بوجود أمي شيئًا فشيئا، وتجردت من أحساسي كليًا، وصرت بعيدة بُعدًا سحيقًا عن ريم التي خطفتها مجازفة بسيطة لرجلٍ صار في أقاصي الدنيا، لا سبيل لرؤيته ولا حتى الحُلم أو الاحتلام فيه.

إذا كانت مواجهة أمي بهذه القسوة، ماذا سيفعل بي أخي غانم؟ هل هذا الأمر أهمية عند أبي؟ أين ليلى أختي؟ اتصل أخي بأمي وهو يسرد قُبح الظنون في وجهها ووجهي. كانت أمي تجيبه وهي مرعوبة، تكاد تبكي وهي ترجوه ألا يفعل شيئًا لي، تحذره من الفضائح. تعرض له وجهة نظر الناس فيه بعدما يعرفون أن أخته كانت عاهرة، وتذكره بأخته الأخرى ليلى، وما سيحصل لمستقبلها.

لكن ثورة أخي كانت باهتة. كنت أراه مثل تاجرٍ تورط في بضاعة فاسدة ويريد أن يتخلص منها بأقل الخسائر. كان ظني خائبًا، عندما اعتقدت أنه سيأتي ليدمر الدنيا فوق رأسي. لم أعد أفهم الدنيا أبدًا. فكلما آنستها دالستني، وكلما لاحقتها فارقتني، وكلما وافقتها نافقتني، وكل ما فيها لا يسير حسب سنة المنطق ولا مشاع الفضيلة. ماذا لو هربت من المشفى الآن؟ سألت نفسي: هل سأحظى في الوصول لبيتي؟ ثم أي بيت يحتويني، منزل جزاري، أو منزل مربي الأضاحي؟ أو شارع المدينة الذي لا أفهم لغته ولا قسوته؟

أريد الهروب وحسب، لا يهم إلى أين. المجهول سيقودني لسبيل يضمر وجعًا أقل.

منذ أن أفقت من غيبوبتي القصيرة، وأنا أسمع صفيرًا مزعجًا في رأسي، لا يكل ولا يمل، كاحتكاك لحدَّين من حديد. كان هذا الصوت أشبه بضجيج منفر رافقني طوال حياتي الآتية، وجعل مني إنسانة عصبية جدًا.

أأقول إني ميتة؟ إن اغتصاب جسدي من الدودِ تحت القبر لأرحم من شك أهلي في عذريتي وشرفي.

أصدرت أمي حكم الإعدام بشكها في أخلاقي، ورغبتها بالتستر على مصيبة لم تحدث. سواء كان بقصدها أو لم يكن، الجرم طال فؤادي.

من غير الممكن لوم أمي حتى وإن أخطأت. الخوف والرعب، الذي اضطرت لتحمله من رجلٍ ساديٍ كأبي، جعل من نظرتها في بعض الأمور محض الشك. إن الموجوعين معجونون بالشك وترنح الثقة في الآخرين.

تلاشى خوفي من أخي، فكلامه وغضبه كان أقرب لأداء ممثل فاشل على مسرح للعمالقة، وأمي هي الوحيدة المتأثرة بتمثيله، فكلما سايرته، صدع فجر غضبه أكثر.

نبشت في داخلي عن مفردات أدافع بها عن نفسي.. لم أجد. أخبر زوجي أخي برغبته في الطلاق، لكن أخي استمهله حفاظًا على سمعة العائلة، وطلب منه أن أظل على ذمته لبعض الوقت. حماتي امرأة طيبة

جدًا، أخبرها زوجي بما حدث، فطلبت منه اصطحابي لطبيب شرعي، فلقد سمعت من قبل عن قصة بنت قتلها أخيها حين أخبره زوجها بأن أخته ليست بعذراء، وبعد فحص الجثة من قبل الطبيب الشرعي تبينت براءة البنت. لم أتمالك نفسي حين ذهبت إلى الطبيب الشرعي. كان ذلك بحضور أخي وأمي وحماتي وزوجي. كانت أمي تستفسر مني عن سر ابتسامتي المعتصرة من صميم الظلم الذي تعرضت له.. كنت أجيبها لا شيء.

ذهبت للطبيب وأنا في أوج ثقتي. هذا طبيعي رغم كل شيء، فأنا أعرف نفسي أكثر من غيري، ولو لم أخرج ببراءة من هذا الاختبار، لكانت فكرة أن الجن ضاجعني خلسة في الليل أقرب للواقع من أي شيء. دخل الطبيب، وحولي يحاصرني الرعاة. كان مبتسمًا.. شرح لهم ما حدث بالضبط، وأكد لهم أني ما زلت عذراء. فور سماع ذلك، ركضت أمي تقبلني وتعتذر مني، بشكل استفزني كي أحتضنها وأبكي على صدرها مثل الأطفال. ظل الكلام محبوسًا في حلق زوجي؛ لكن حماتي كانت على العكس، تشكر الله وتحمده.

جاءت تقبلني من جبيني، وتدعو لي بالتوفيق في حياتي. اقتربت من أذني، واعتذرت لي من تصرفات ابنها الذي وصفته بالأرعن!. استأذنت منا بعد ذلك وخرجت.. طلبت من زوجي أن يلحقها إلى الخارج.

في ذلك الوقت، كان أخي يعض بشفتيه. حتى اللحظة لم أفهم شعوره بالضبط تجاه هذا الخبر. من المفترض أن يكون سعيدًا؛ في المقام

الأول لن أكون سبب فضيحة له، وفي المقام الثاني سيرتاح من همي وسأظل عند زوجي.

أظهر ما أخفى ونُبشت مدافنه.. اخترق الموقف بعدما خرج زوجي قائلًا:

"حمد لله ع السلامة، تحمدين ربك، الله أعطاك فرصة ثانية"

ما أسوأ ما قال.. حتى بعدما تبين ظلمهم، يريد أن يصيغ الكلام بصورة يحافظ فيها على كوني المذنبة! أي حقد انسل من أغباش قلبه هذا!

كنت قد قررت مسبقًا –حين سمعت عن موضوع الطبيب الشرعي– أن أطلب الطلاق بعد أن تثبت براءتي، وكان ذلك قرارًا نهائيا. لكني أردت أن يكون ذلك موجعًا، بشكل أنتزع فيه حقي، وأهينهم مثلما أهانوني.

وجعي كان فريدًا، وإن تشابه في فكرته مع إحدى النساء. تفاصيل الأوجاع عند النساء لا تتشابه أبدًا، على عكس الفرح، الذي تشترك بأسبابه ومظاهره جميع النساء.

ما قاله أخي جعلني قوية جدًا. مسحت دموعي قبل أن تنهمر. لم أعد بحاجة لشفقة أحد. أخذت أمي إلى حضني أقرب من مسافة الصفر، أعطاني ذلك شعورًا مفعمًا بالأمان. تجاهلت أخي فلم يكترث، وخرج ليرى زوجي.

في هذا الوقت، كانت أمي بين يدي عصفورة مذبوحة، وكنت لها الكتف الذي تبكي عليه، والأمل الذي يحتويها. أحاول جاهدة أن أقشع همها، وأحسر غمها، وأسفر الحزن عنها. قد يكون تمردي على الظلم فضيلتي الوحيدة وسبيلي للخلاص، كي لا أواجه قدر أمي. لا أريد أن أتورط بأولاد يحكمون وجودي إلى الأبد مع رجل برائحة حظيرة.

عقلي يعصف ذهنيًا بأقصى طاقته، جليت عنه ضبابية الصمت، ودجن المفردات التحذيرية الظلامية التي تربيت عليها، كما لو أنها أوامر رب السماء. تلك اللحظات هي التي بدأت فيها إفراغ قلبي من المشاعر والإحساس، وبدأت الاستقواء من جلمود الضعف. كشرت عن أنياب عقلي في وجه كل من يتلذذون بكسر خاطر الأنثى.

دخلت حماتي بعد لحظات، ثم زوجي وأخي معًا. توقعت ماذا سيحدث.. باشرت حماتي بكلامٍ طيبٍ تحاول إصلاح ما أفسده ابنها. في الأصل، لم يكن هذا السبب الوحيد الذي جعلني أريد الطلاق منه، بل ما حدث قبل الصدمة، فكبريائي لا يقوى على تحمله مجددًا. تحليت بالصبر احترامًا لكلام أم زوجي، لأنها بشكل أو بآخر سبب قوتي في هذه اللحظة. لكنها رغم ذلك كانت تعرف مسبقًا طبيعة ابنها، ومع ذلك لم تصارحني بأسلوب حياته، بل كان الحديث عنه متناقضًا تمامًا لما هو عليه. أنهت كلامها، الذي –صراحة– لا أذكر منه غير آخر جملتين، القرار قرارك. زوجي كان ملتزمًا الصمت. لم يخرج منه شيئًا غير بعض الإيماءات الاستنكارية.

حين أنهت حماتي الحديث قال أخي:

" تعالي وبوس راس زوجك، واعتذري منه!"

أي وقاحة وخساسة ونذالة تلك التي تظهر على صورة أخي؟! سألت نفسي مرارًا وتكرارًا: هل هذا نفسه هو أخي الذي كان يشاركني اللعب في طفولتي؟

آدم

تطرقنا قليلًا للموضوع الأساسي الذي جئنا إليه، وهو تعليم سارة اللغة العربية الفصحى بشكل عام، والكتابة الصحفية بشكل خاص. أعربت سارة أنها ستمكث في مصر سنة على الأقل.

مشروع الإعجاب الذي كنت أكنه مسبقًا لسارة تلاشى نوعًا ما، لذا بدوت معها عمليًا جدًا، ونصحتها بالتسجيل في جامعة عين شمس، حيث يمكنها الدراسة ضمن برنامج وخطة واضحة، وعرضت عليها مساعدتي في أي وقت ترغب فيه، ويمكننا -إلى جانب انتسابها للجامعة- البدء من الأسبوع القادم في الدروس، لأن التسجيل في الجامعات المصرية يبدأ في الشهر التاسع بعد نتائج الثانوية العامة، لذا كان لدينا متسع من الوقت للبدء، قبل بداية الدراسة في الجامعة. كنت قد رق قلبي بشكل كبير لقصة صديقتها. لكن رقة القلب لا تنفع أنثى أشهرت أسلحة كبريائها في وجه الجميع. في الوقت الذي كانت سارة تسرد فيه القصة، كُنت أتخيل كيف أصبحت شخصيتها في الوقت الحالي. أنا خير من يعرف ما يفعل الألم بامرأة، فهو إما أن يقضي عليها تمامًا، أو يجعلها امرأة في حالة نضجٍ وحذرٍ كاملة، على المستوى العقلي والعاطفي.

ستأخذ حياتها صبغة السخرية من مجريات الحياة، ستشرق شمس أناقتها أكثر، ستهمل العالم الواقعي.. وتتجه للعالم الافتراضي!.. ستعطي اهتماما أكثر للزهور والموسيقى، ستهرب من القاع إلى القمة، ستكره الرجال كلهم عن بكرة أبيهم، لكنها ستلين يومًا أمام أحدهم. حين تطلب امرأة الطلاق من رجل لم تتجاوز فترة زوجهما أسبوعا، وخصوصًا بعد واقعة طمس كبريائها، فهي بلا شك امرأة قوية، لا ريح تجابهها.

كم إن لديها بُعد نظر وجليتها مشرقة!.. بالطبع الكل اتهمها بالجنون.. لكن على مستوى نظرتيَ الشخصية، رأيت زينة العقل فيها تلمع مثل اللآلئ. لقد طلبت الطلاق من رجلٍ شبه سادي، تكره حتى رائحته.. كم من الأذى تجنبت، وكم من سنوات عمرها أنقذت، وكم من غصات الأهل تحاشت، وكم من كرامة نفسها حفظت. ماذا لو ظلت على ذمته وأنجبت أطفالا، ماذا سيفعل زوجها؟ الجواب البديهي، إن لم يقايضها على أبنائها، حتما سيجبرها على الخضوع من خلالهم.

على أي حال، فستواجه هذه المرأة عجب العجاب بعد حصولها على لقب مطلقة. ستقضي على نفسيتها تلميحات الأهل والأصدقاء، إذا لم تع أنها انسانة، وأن كل هؤلاء ليس لهم سلطان عليها. ستعيش بشخصية أقوى، وتبدع أكثر.. لن يكون هناك مجال للفشل في حياتها، لأنها قبلت أن تضع نفسها في تحدٍ، خيار الفشل فيه غير متاح.

طلبنا الحساب من النادل، وأثناء ذلك تبادلت مع سارة أرقام الهاتف وحساباتي الافتراضية على الإنترنت. إنني مدين لصديقتي اللاتيفية "لي

ياني" لمسؤوليتها عن إيقاظ قضية المرأة في أكناني، فلولاها لأصبحت مثل غيري مدفونًا بالشرق. إن لديّ الآن رغبة بكتابة رواية عن المرأة في العالم العربي. الفكرة غير ناضجة بعد، لكن استراق بعض الأفكار من سيرة صديقة سارة لا يضر. وإن كانت الكتابة عن أوجاع النساء أمرًا مرهقًا، فالظلم الذي يتعرضن له لا يمكن حصره بكتاب! فكرت أنني كنت بحاجة لإلهام، وقصة صديقة سارة بذرة هذا الإلهام.. لم أنتبه لصوت قلبي، الذي كان يريد أن يقول لي شيئًا، وأنا أسكته على سبيل الإنجاز قائلا: ستتكلم عن ذلك لاحقًا. أثناء خروجنا من "الكافيه" أوقفت سارة قليلًا وسألتها:

– ما اسم صديقتك؟

قالت : ريم..

قلت في سري... ريم؟ أين سمعت هذا الاسم؟

أخذ الأمر ثوان، حتى عادت لخاطري ذكراه. أنا واقعًا فعلًا بغرام هذا الاسم من قبل. لقد أحببته بعدما اختارته شهد اسما لأول أبنائنا الذين حلمنا بهم. لدي ذكريات جميلة جدًا مع هذا الاسم.. هو يعني الغزال شديد البياض. سألت سارة بعفوية:

هل هي من أصل بدوي؟

فردت سارة: نعم هي من أصل بدوي.

الجمال البدوي وعراقة تفاصيله.. تلك التي تغنى بها شعراء العرب قديمًا. بدأت أرسم ملامحها في مخيلتي على استحياء، وأقول لنفسي: كف عن الجنون، ولا تشطط بأكثر مما يجب.

أعترف أني أتسرع أكثر من اللازم في رسم هكذا نوع من العلاقات الهلامية؛ لكنها سرعان ما تنقشع عن بالي. ولو أن كل علاقة غرامية أقمتها في خيالي غدت حقيقة، لأصبحت أكثر من زير نساء، وأعظم دونجوان على الأرض. كنت أتهم نفسي أني أبحث عن حب جديد لأنسى شهد. وكنت مخطئًا.. أنا أؤمن أن الحب الأول لا يعني الأخير. لقد كتبت في مدونتي عن ذلك حين عدت إلى البيت. لقد شعرت بتأنيب الضمير من تلك الفكرة، فأردت أن أغسل روحي بنص جديد، أصارح فيه الواقع، وأحتذي سبيلا آخر للحياة.

كتبت مدونة بعنوان قصير "ما الحب إلا للحبيب الأخير"، فيه قلت:

"فشل أو نهاية العلاقة بين اثنين عادة ما تسبب نقلة من اللاوعي إلى الوعي، وذلك يبدأ مع التحليل المكثف لتجارب الماضي، والتي تخلق لدينا كمية مهولة من التخيلات السلبية، التي تؤدي إلى فقداننا للثقة في الحب بالدرجة الأولى. سنفكر بمرارة: لماذا حال بنا الحال إلى هذا؟ أو إذا كان الحب فاشلًا سنسأل: بماذا أسأت إليه؟ ونرثي أنفسنا بالأسباب وحُسن النوايا. لكن ماذا بعد؟

إن الروح تنمو بالتجارب، فكما احتاجت الفلسفة للمدرسة التجريبية لكي تصطفي أفكار الآخرين على مدى قرون، تحتاج الروح لذلك، لكي تنمو في رعاية العقل".

بعدما نشرت هذه التدوينة بعشر دقائق، جاء تعليق على صيغة سؤال من الفتاة نفسها، التي تسمي نفسها رحيل القمر:

كيف نحافظ على الحب إن تعثرنا به؟

علقت بإجابة طويلة على سؤالها:

في الحب، لا يجب أن تنفق كل وقتك على الحبيب. إن هذه الفكرة المفسدة ما هي إلا من طلاسم الشعراء، الذين يفوحون بتعدد العلاقات في حياتهم. أي مخلوق في الحياة يحتاج لوقت خاص، بعيدًا حتى عن أقرب الناس، فلا ضرورة لأن تحول نفسك من عاشق لمخبر. حاول أن تفهم أن حبيبك ليس بمادة تتملكها، ولا يحق لك أن تملي عليه قوانينًا، وتجبره على أن يصادق أحد ويترك آخر، يأكل هذا ولا يأكل ذاك،، كل هذا الهراء منفر جدًا.

ثقتك بنفسك -كما أنت- هي ما تضفي أناقة لحضورك، فمحاولة أن تغير عادات ومظهر شريكك ترهق حبكما، فلماذا تحاول أن تجعل الصخر ماء؟!

كثافة المشاعر الجميلة التي تنتابك في بداية الحب تختفي مع الوقت. ذلك ليس قصورا في حبيبك، أبدًا، لكنكما وصلتما لمرحلة نضوج العشق. فرجفة كل لقاء ستتلاشى ولا يعني ذلك تلاشي الحب، فلا تسرف بالشكوى وتَوصَّل بنفسك لسلامك الداخلي.

أتعرفين؛ حتى عند الفراق، كن رشيقًا ما استطعت، والتزم بقواعد الفراق.. لا تحن، لا تعد، لا تندم، ولا تخن سرًا كان يجمعكما!

كانت لاتزال متصلة بالإنترنت، فقد جاء ردها سريعًا:

سأحرص على تجنب ما ذكرته، إذا وقعت في الحب يومًا ما.

كنت سعيدًا جدًا بتعليقها. أجفف خاطري، وأقول لنفسي: بعضهم يؤمن بحروفك، استمر في الكتابة، لا بد أن الكتابة طوق النجاة الذي لم تنتبه لوجوده في حياتك. في تلك الليلة، تحمست ونشرت أربع مقالات قديمة كنت أحتفظ بها، غالبيتها عن الفراق وألمه. وكانت رحيل القمر تترك دائمًا إما تعليقًا أو رمزًا لوردة على كل مقال. من هذا المنطلق، بدأت أكتب بكثافة، بعدما شعرت أن (أحدهم) يتابعني باستمرار.

ريم

أخذت على عاتقي الجنون، وبلا تردد طلبت الطلاق، وقلت لهم:

أنا المجنونة التي تريد أن تحافظ على ما تبقى من عمرها بالطلاق، أريد الطلاق ولا رجعة لي عن هذا.

لمحت أمي بطرف عيني تمسح دموعها، وتخفي ابتسامة الرضا التي لم ينتبه لها أحد سواي؛ كأنها تريد القول إن هذا خير ما فعلت كي لا تحصدي ما حصده حظي.

أمي الوحيدة التي تفهم لماذا أصررت على الطلاق.. لا تريد أن يعيد التاريخ نفسه، تكره أن تتخيلني أواجه ما واجهته في حياتها. أمي رقيقة جدًا، تفهمني وأفهمها، حتى لو كان كلامنا عكس ما تخفيه أفئدتنا. أدركت أن عتبي عليها لم يكن في موضعه. فمثلما أنا مكرهة على الزواج، هي مكرهة على قول ما قالت، وخوفها الشديد، جعلها تتحدث بلسان بالخوف، ولسان الخوف لا يؤخذ عليه في دنيا الضباع.

كانت "أريد الطلاق" كل ما تفوهت به، بعدما طلب مني أخي أن أقبل رأس زوجي. كاد يلطمني على وجهي، فحمتني أمي بجسدها، وقفت حمايَ بيننا. قام بإهانتي بلفظ ناب.. كانت أول مرة في حياتي أسمع هذا النوع من الألفاظ. أردت أن أبصق في وجهه، لكن خوفي

رحمني من حماقة تصرف كهذا. تشبثت بأمي أكثر، انهرت في البكاء، بكيت كما لم أبكِ من قبل في حياتي.

أما ذلك الزوج، فكان متفرجا، لم ينطق بشيء؛ حتى رغم تدخل والدته. أي رجل في الكون هذا؟! لم يحاول منع أخي من ضربي، وأنا بحكم الدين والقانون ما زلت زوجته! كل من عاشرتهم من الرجال كانوا شكلاً للرذيلة في حياتي. تعلقت صور الوضاعة والخيانة في نظري بهم، واحتكروا لهم دور الشر على مسرح الحياة.

وأنا قررت ألّا أشارك في هذا المسرح، لا بخير ولا بشره. قررت أن أكون ما أريد وحسب. ظللت أبكي بشكل هستيري، وفقدت السيطرة على نفسي. لم أستطع الوقوف من شد القهر.

أوسعني غانم لومًا وتوبيخًا وتعنيفًا، لكني احتفظت بثبات قراري وصمتي رغم كل ذلك، فأنا أعرف أني إذا ما تفوهت بحرف ستزداد فورة غضبه؛ أخي وأعرفه..

رغم غانم، تفوقت عليهم وطُلّقت. والدة زوجي كانت تقف إلى جانبي.. لا أدري هل ذلك كان بحسن نية أو لا، ولا أدري إذا كان موقفها لصالحي بالفعل، أو لصالح ابنها. هي من أجبرت ابنها على الطلاق، رغم أنه في الحقيقة لم يكن مجبرًا، فلم يبدُ عليه بأنه يمانع ذلك. يبدو أني استطعت جعله يكرهني من الليلة الأولى. المهم أني طُلّقت. كان يوم براءتي هو نفسه يوم طلاقي. ما أوسع تعاستي في ذاك اليوم.

في اليوم الذي عدت فيه إلى بيت أهلي، اكتشفت أن أخي غانم هو من قام بمنع أختي ليلى من مكالمتي. كانت ملامح ليلى باهتة، هالة السواد على جفونها نضجت، وصورة العجز من عينها نطقت. بمجرد دخولي البيت، ركضت نحوي، واهتدت إلى حضني، واعتصمنا بحبل البكاء جميعًا.

عرفت ماذا تعني الدموع.. إنها أشبه باستراحة محارب قضى شهورًا في المعارك. البكاء حالة رخاء للنفس، نلفظ فيه أوجاعنا، ونعبر فيه عن ندامتنا، ونُكفر به عن ندبات الفراق.. البكاء صلاة للروح والقلب.

تعافيت، وتعاميت عن كل ما مضى، منذ دخلت بيت أهلي، رغم إدراكي بأني مع الأيام سأكون منبوذة في هذا البيت. لذا، رتبت جدول حياتي، وقررت أن أعمل.

وضعت هذا الموضوع جانبًا إلى أن يهدأ عطش الوقت من هذيانه، ولأستوعب وضعي الجديد في البيت، وأرى نبض أهلي تجاهه. بدأت الأيام تمر يومًا بعد يوم، وأمي شيئًا فشيئا تعود لجبروتها الحريري. تراكم الفراغ فوق بعضه.. أخي غانم صار ينبذني أكثر، لدرجة أنه إذا أراد أن يقول لي شيئا، يخبره لليلى أولا، ثم تنقله ليلى إليّ.

كنت أُنجد وقتي بالقراءة، ثم لاحقًا صار العالم الافتراضي الحضن الدافئ لأفكاري. على الرغم من ترددي في اقتحام هذا العالـــ إلا أني تورطت به حد الثمالة. الإنترنت نافذتي الوحيدة التي تنشق من جدران سجني الاجتماعي، خصوصا بعد زيادة منسوب المحظورات، التي حاصرتني بعد الفوز بلقب مطلقة.

في تلك الأيام، زاد شعوري بالغثيان ونقص وزني بشكلٍ كبير. كنت أعاني من ضغط نفسي شديد، وكالعادة كان سلاحي الأسبرين، الذي لم أكن أتخلى عنه أبدًا.. مغمودٌ هذا الدواء في جيبي أينما ذهبت.

أنا لا أنكر أني كرهت نفسي بشكلٍ كبير. لكني كنت أعرف مسبقًا أن إحساسًا كهذا سيراودني. ليس ذلك وحسب، كنت على يقين بأن الشك سيزور قلوب أقرب الناس لي. عين العطف في عين أمي وأختي ستغدو يومًا عين اتهام. حتى الخادمة، ستصبح لها سلطة على حريتي أكثر من نفسي. كنت أعرف كل ذلك، وأعرف أني يومًا ما، لن يكون بمقدوري ارتداء بعض الملابس الداخلية، تحديدًا الزاهي منها.. ولن يكون بمقدوري النوم بقمصان نومٍ، بل بالبيجامة.. كما سيكون من الأفضل أن أقتني أنواعا معينة من المكياج، وألا أضع عطرًا فوّاحًا، وألا أتحرك لأي مكان بدون وجود محرم. صديقاتي سيحرّم عليهن أزواجهن وأهلهن لقائي، سأغدو خطرًا محدقًا لأي علاقة أحد أطرافها قريب مني، وربما أكون حجةً تتاكف بها زوجة أخي المستقبلية زوجها، فأخي من النوع الذي تقضي على شخصيته امرأة.

سينظر لي الرجال على أني فريسة سهلة للجنس. وربما سيخطر في بال غانم أني مارست الجنس مع أحدهم، رغم كل التشديد الأمني الملقى على كاهلي من أهلي. سأكون مطمعًا للقطاء، والسيدة المسلية والمضحكة في سهرات الأهل والأصدقاء. سيظن الناس أني أجيد النكات الإباحية. وسيدع البعض في افتراض أنفسهم نافذة الهواء

الوحيدة في حياتي. كل هذا أعرفه وأدركه، لذا رفضت ما أرادوا أن يجعلوني إياه، المرأة المهترئة التي تستحق الشفقة. ارتداني الشحوب عنوة، ولم أمانع.

كنت في بداية إدماني للمواقع الافتراضية، لم أقتحم هذا العالم باسمي الحقيقي. اخترت اسمًا مستعارًا أتخفى به. لا أعلم لماذا تصرفت كذلك؛ ولكن أغلب الظن أني أردت أن أتحاشى نوعًا من المشكلات ستظهر في حال استخدمت اسمي الحقيقي. لذا، وتجاوزًا لهذه المشكلات المتوقعة، تخفيت تحت اسم مستعار. أغرقت جهازي بالأحزان والأغاني، وبمجلدات مملوءة بصورٍ تعكس أمنياتي وأحلامي. صورة لرجل يحتضن امرأة على شاطئ البحر، عشرات الصور لمارلين مونرو وسعاد حسني، صور لعشاق يتبادلون القبل والنظرات، صور مميزة للشكولاتة، رجل وامرأة يمارسان الرياضة بشكل رومانسي، وأغنيات من الزمن الجميل، وأخرى لمطربين مغمورين تعثرتُ بأصواتهم مصادفة أثناء تسكعي على الانترنت، وخواطرٍ تهجو الرجال تارة، وتمدح الحب تارة أخرى.

أدمنت المنتديات الحوارية فترة، ثم وصلت إلى مواقع التواصل الاجتماعي. كان لديّ مدونة خاصة، لا أكتب فيها كثيرًا، أضيف من خلالها بعض التعليقات على تدوينات الآخرين، وفيها بعض المعلومات المهملة عني.

كانت تشدني جدًا الأفكار غير المألوفة والمتحررة، وكتابات المدونين كانت بمستويات تحررية لا سقف لها على مستوى انتقاء الألفاظ، واختيار المواضيع.. تقريبًا كل شيء مباح هناك، وكل شيء

واضح وصريح بشكل صادم. تفاجأت بأفكار بعض المدونين على تويتر، الذين يقيمون بالخليج.. أفكارهم، وأطروحاتهم، وانتقاداتهم للعادات والتقاليد والسياسة. قرأت عددًا من الروايات بأقلام نساء من الخليج، تصف الواقع بعمق وجرأة. لم تكن تلك الكتب في المكتبات، قرأتها بصيغ الكترونية. حتى الآن، لا أستطيع أن أصل في تخيلاتي لهذا المستوى التحرري الفكري الذي لديهن.

كان تأثير المدونين على أفكاري مترنحًا، ما بين عميق وسطحي. لكن قراءة مواضيع بعضهم شكلت إدمانًا جديدًا أتعرض له. فُضت بكارة قلبي، وصار أكثر جنونًا، يحب هذا ويكره هذا، يعرف الحقد ويعرف الخبث، وغدت له عيون تحيط بجدرانه من كل جهة، وآمنت بأن مبدأ حسن النية لا يجب أن يعمم على جميع البشر.

من بين من تابعت، كانت تشدني كلمات كاتب مغمور، تابعته منذ كانت مدونته فارغة الا من اسمها، الذي جذبني: "لاجئ على باب الله". موضوعي مع الفلسطينيين طويل لا ينتهي.. رافقني طوال حياتي.

كانت نصوصه قصيرة بدائية، لم تكن لغته قوية لتجعله فريدًا، ولم تكن المواضيع التي يطرحها والنقاط التي يشير إليها بجديدة. لكن طريقة طرحه للمقالات كانت مختلفة، تجعلني أصدقها وأشعر بها.. كانت تعكس تجربة شخصية. كنت قادرة على أميز كتابات هذا الشاب، حتى لو وضع نصه في كومة ورق.. لم يكن يتقمص أوجاع الناس ويتحدث بها، بل كل تدويناته ترتكز على وجعٍ واحد.. كنت أشعر بهذا الوجع.. إنه يختزل في مكنون كتابته الوجع الفلسطيني، حتى لو كان النص مُعنونًا بموضوع لا علاقة له بالأرض. تشبيهاته

كانت تقنص شيئًا من الوجع.. وكانت لدي متعة في اكتشاف هذا الانعكاس على نصه.

في غمرة هذا التعب وهذه الأجواء، وبعد انقضاء شهرين على طلاقي، كنت أجلس في صالة البيت على الأريكة أتابع التلفاز، أقامر الوقت عسى أن ينقضي لأي أجل لا يطرحني فريسة الفراغ. جلس بجانبي والدي، على غير عادته. سألني عن حالي بأبوية لم أعتد عليها. أجبته بشكل مختصر "الحمد لله". ثم بدأ على تردد إقحامي في نقاش عابر عن المسلسل الذي كنت أتابعه. تقريبًا منذ سنوات لم أحظ بفرصة الجلوس معه.

كانت جلسة لا حدة فيها. فاتحني بالسؤال عن مشروع حياتي، وسألني ماذا سأفعل بعد الحال الذي رسَوت إليه، هل سأبقى في البيت بلا شيء يشغل عقلي عن مشانق الفكر، أم ماذا. اقترح عليّ العمل في إحدى شركاته؛ لكن مجال دراستي لم يكن يؤهلني لذلك. وبعد الأخذ معه في الحوار، خيرني ما بين العمل أو الدراسة، وقال لي:

بإمكاني إيجاد فرصة عمل مناسبة لك، أو إذا أردت بإمكانك تكملة الدراسات العليا في أي بلد تختارينها.

ثم نهض بشكل مفاجئ عن الأريكة، والتقط مفاتيحه من على الطاولة، وسألني أين أمي وأختي. أجبته:

أمي فوق، وأختي ما زالت تقلم أظافرها عند الكوافيرة

وقبل أن يصعد للطابق العلوي ليستريح قال:

فكري بالأنسب لك، وخلال أسبوع أخبريني عن قرارك.

كان هذا اللقاء الأكثر فرجًا في حياتي. هي مكافأة وفرصة أرسلها الله لـ ليخلصني من برودة الوحدة وقسوة الفراغ. شعرت أن جسدي انتعش، وكأن نهرًا انفجر في صحرائه المتصدعة، والملوثة بالتشققات والعادات المقلقة.

من كل محنة تومض جنة؛ لكننا بحاجة لعيون ترى الأشياء على حقيقتها، لنميز الفرق ما بين الفردوس والجحيم. في كل مرة تطل على أحزاني نافذة فرج.. نعم، حتى في زواجي الخائب، كانت والدة زوجي باب الحرية، الذي أخرجني من قفص الزواج.. وحتى بعد طلاقي، ها هو والدي يمنحني -من حيث لا أدري- شرفة تطل على الحياة من جديد. أخذت قرارًا بأن أدرك هذه الفرصة بكل عقلانية، فهي ملاذي الوحيد لحياة كريمة أبدية. كانت سعادتي لا توصف.

أقفلت التلفاز، وذهبت مسرعة إلى غرفتي، لكي أستفرد مع عقلي بهدوء، وأصارعه كأني عدوته على طاولة الشطرنج، أناظره وأشعل عواصف ذهنية به.

كنت أشعر حينذاك بألم حاد جدًا في الجانب الأيسر من بطني؛ لكني لم أعطه أي اهتمام، فأنا اعتدت على وجع العظام وآلام البطن التي تأتي وترحل، كأنها جيش مزاجي. فتشت في مخالب الإنترنت عن مشاكل الدراسة في كل بلد على حدة. لم أبحث عن المزايا؛ مباشرة ركزت بحثي عن الصعوبات. تجولت في الصفحات الإلكترونية والمنتديات.

بالطبع فضلت فكرة الدراسة عن العمل، كي أستطيع أن أنأى بنفسي، بقسط من الحرية والراحة، وأرى العالم بغير قيود، خصوصًا بعد شلالات العالم الافتراضي، التي كانت تصب أفكارها في خزانات عقلي الفارغة إلى كبير..

تمنيت الدراسة في ألمانيا أو فرنسا، لكن اللغة كانت حاجزًا بالنسبة لي. لم يكن لدي رغبة في دراسة سنة تحضيرية، ثم معادلة شهادتي الجامعية حسب قوانين التعليم هناك، وربما سيكون هناك زيادة كبيرة متوقعة في معدل الساعات المقرر دراستها، ثم أخيرًا الالتحاق بدراسة الماجستير أو لا. أنا لست صبورة، ولا أريد أن أضيع سنة أخرى من عمري -على أقل تقدير- بالإضافة لسنوات دراسة الماجستير. لذا، ارتحلت من موقع لآخر، ومن بلد لأخرى.. مرة أقرأ عن الدراسة في أوكرانيا، ومرة في بريطانيا، وأخرى في سويسرا.. كانت الرهبة الشديدة دائمًا تمنعني من المغامرة في التبحر في قراري في أحد البلدان، حتى أرهقت تمامًا في عملية البحث، فارتأيت أن أستريح وأكمل بحثي غدًا.

بدأت أتصفح المدونات، أريح عقلي بها، فوجدت المدون الفلسطيني "لاجئ على باب الله" قد نشر مدونة عاطفية قصيرة، يقول فيها:

"أحبك بسلوكٍ غير مألوف!

لحسن شأن الحب معي، أني أحبك أنت لا غيرك من النساء. نمر على لفتات الحب معًا، كلاعبي سيرك يتراقصان على حبل، دون أن يهتز توازنهما.

أسأل والديك، إخوتك، أصدقاءك عن كل أغنية مفضلة مرت بذاكرتك، وأجمعها وأجمع لك من كل لحنٍ صوب قلبك أغنية. أضعها على قرصٍ مدمج، وأغلفها بصورة ليدينا معًا، وأكتب "أحبك يا تعبي".

وأعود بنهج حبنا إلى الماضي الجميل، وأعيد إحياء هدايا الدباديب والمكاتيب. أستيقظ في متن الليل، أكتب على ورقةٍ سطرًا عن حبي لك، وألصقها مرة على الثلاجة، وتارة على مرآة الحمام.. كل تلك الأماكن التي تجعلك تبتسمين من نواة قلبك.

سأخطط خلسة مع والدك للسطو على صورك الطفولية، أضعها في "ألبوم صور" تحت وسادتي، ولا تكتشفين أني أملكه إلا مصادفة لا شأن لي فيها إلا خبث الدهشة.

وفي كل يوم من الأسبوع يشابه يوم زواجنا، أهديك كتابًا لأولئك الرائعين الذين تقرئين لهم،.. مع وردة بالطبع!

لا أتعشى من غيرك، وإن غبت يومًا قهرًا عن عشاء، نعوضه في يوم آخر بالعشاء مرتين.. ولا تقلقي بشأن تنظيف الصحون والطبخ!..

سيكون في كل مكان أجلس فيه متسع لتشاركيني جلستي، حتى ولو كان الكرسي لا يتسع لنصف جسدي!، وأنظف لك زاويتك على السرير، بإزاحة الفوضى كلها على مكاني..

و أكرر لك إعلاني حبي كل يوم، ولا أكرر نفس الطريقة!"

كلماته بسيطة نقية، لا تعقيد فيها، يهفت لها القلب لوهلة، ليتخيل نفسه يعيش فيها. أغمضت عيني، وبدأت أترجم هذا المشهد في خيالي. كنتُ الجميلة التي تجلس إلى جانبه، على أرجوحة تلتف حول أضلاعها أغصان الياسمين.. وكنت أستمع بتمتع له، وأداري ضحكة قلبي وفرحته.

لكن.. لكن لم يكنِ لديَّ صورة لأتخيل وجهه؛ لذا لم يطُلْ الحلم. أردت أن أكتب تعليقًا على النص، ففوجئت بنفسي أنزعج جدًا، حينما لاحظت أن هناك متابعة جديدة غيري قد سبقتني بالتعليق. شعرت بنوع من الغيرة، لأني في الأصل كنت سعيدة بكوني الوحيدة تقريبًا الذي تزور كهف حروفه المهجور.

ذهبت مسرعة لزيارة ملفها الشخصي على مدونتها، من خلال الضغط على اسمها في التعليق الذي أضافته. كانت مدونتها باللغة الإنجليزية، وكان على الجانب ثلاث أيقونات لحسابها على الفيس بوك والتويتر وجوجل بلس.

ضغطت بلا تردد على حسابها على الفيس بوك، لأرى شكل هذه التي اقتحمت كهفي الخاص. كانت عقلي يضج بالأفكار الشريرة.. أتخيل نفسي تارة أضعها في طنجرة كبيرة مملوءة بالماء المغلي، وتارة أحبسها مع مجموعة أسود جائعة، والكثير الكثير من السادية انفجرت في أفكاري تلك اللحظة. لكن الصدمة التي لم أتمالك نفسي أمامها كانت فيما هو في أصعب الأحوال لم يكن بإمكاني توقعه. ظللت للحظات ساكنة لا أتحرك، صامتة، حتى وجع بطني تحنط، وآلام عظامي توقفت عن أزيزها لتستوعب ما رأيت.

هذه السيدة ضمن قائمة أصدقائي!

آدم

وجدت رسالة من صديقي أسامة، الذي درس معي في المرحلة الإعدادية، في مدرسة الرمال الثانوية في قطاع غزة. أسامة صديقي، الذي يتناقض معي في كل شيء.. لا يحب ما أحب، ولا يكره ما أكره، بل على العكس. هذا الشيء الذي جعله من أصدقائي المقربين. أنا على تواصل معه منذ ترك غزة وسافر إلى الإمارات هو وعائلته، قبل أن تتعمق حالة الانقسام الفلسطيني، وبدأ العمل هناك مع والده في إحدى شركات الدعاية والإعلان وتصميم مواقع الويب. كان مضمون الرسالة أن لديه صديقا يريد تأسيس مجلة اجتماعية، وقد طرح عليه بعضا من كتاباتي القديمة على صفحتي على الفيس بوك، ونالت إعجاب صديقه، فاقترح عليه أن أكتب مقال أسبوعيًا في مجلته، في سياق العلاقات العاطفية بين الجنسين. لم أتردد. وافقت على الفور، وطلبت أن تُوقع كتاباتي باسم مستعار، كي لا يرتبط اسمي بالكتابات العاطفية، لتحفظي وعدم قناعتي بحصر كتاباتي في هذا الجانب، بالإضافة لأن ذلك ربما لا يتناسب مع ثقافة أسرتي والبيئة التي خرجت منها.

مع هذه النقلة، تغيرت حياتي بشكل متسارع، وصار لي دخل ثابت. من خلاله أخمدت الفوضوية التي كانت تحتل حياتي. في الواقع، كنت أبحث في داخلي عن الاستقرار، دون أن ينشغل عقلي بالتفكير

بقوت يومي، وأريد التفكير بحرّية في الحب وللتخطيط بعقلانية للمستقبل، والانطلاق لعالم الحب والإبداع. حتى القلب نفسه سيتفرغ لاختيار ما يليق بعواطفه.

أنا أؤمن أن الوقوع في الحب اختيار. ربما يعارضني البعض في ذلك، ويظن أن الحب شعور يتعثر بنا على حين غرّة، ومن الممكن على إثر ذلك أن تضمحل حياتنا، ويجب علينا في هذه الحالة أن نكون عابسين ما استطعنا، ومزاجيين كأننا تحت تأثير الخمر. لكني على إيمان ويقين بأن بإمكان أي شخص أن يختار بعقله شريك عمره، ويعشقه بمحض إرادته، حين يعيد بوعي ترتيب مشاعره العابرة والفوضوية تجاه الشخص الذي يريده. الحب في نظري قرار واختيار، فالله لم يخلق القلب والعقل ليعمل أحدهما بمفرده، وما دون ذلك صهريج عذاب!. أفكاري الآن سوسنة تتبع الحب في موازين العشق الأربعين، من السفر الأول للأخير. لا بد من تجربة أخرى للخوض في علاقة حب جديدة؛ فالامتناع عن الحب لا يمثل أي حماية للقلب. يقول مولانا جلال الدين الرومي: " أولئكَ الخائفونَ من أين لهم أن يدركوا غُبارَ العشقِ!؟"

أقفلت جميع الصفحات الإلكترونية التي كنت أستعملها، فتحت مجلد الأغاني، الذي يحتوي على عدد كبير من المجلدات الغنائية، والتي كانت مصنفة بشكل منظم في جهازي الخاص. واخترت تشغيل الأغاني الصوفية بشكل عشوائي، دون اختيار أغنية معينة بحد ذاتها. اخترت –لأقرأ– كتابًا صوفيًا عن الحب، كنت قد اقتنيته قبل أسبوع من سور الأزبكية؛ ذاك المكان الشهير لبيع الكتب المستعملة، الواقع

في ميدان العتبة في القاهرة. أعتبر هذا المكان الأقرب لقلبي في مصر. أجد فيه معظم الكتب التي لا أجدها في المكتبات الكبرى. هو أشبه بمعرض كتاب صغير، لكنه مفتوح على مدار العام. كنت إذا ما زرته، أقضي اليوم كله أتجول بين ممراته ومكتباته.

ألقيت نظرةً على أسماء الكتب التي أقتنيها وأقرأها، فلاحظت أني مهموم بالحب فعلًا.. أقرأ عنه، أمضغ سيرته في حديثي، وكل شيء بأفكاري صار ينتهي إلى الحب. لا أدري إذا كنت أبحث عن الحب فعلًا، أم أني أعاني مثل المراهقين من الجفاف العاطفي؛ لكني كنت على يقين بأني أبحث عن الاستقرار، من خلال قصة حب أؤسس بها حياتي، بعيدًا عن زغب الصورة الدارجة للحب.. وهذا ما جعلني أؤمن به أكثر.

وأنا منغمس بقراءة وتأمل أعذب المعاني الصوفية، رن هاتفي المحمول قبيل الساعة الحادية عشرة ليلاً.. كانت المتصلة سارة! استغربت اتصالها في مثل ذلك الوقت. هذه المرة الأولى التي تهاتفني على رقمي منذ قدومها لمصر. كان مزاجي مرهف جدًا حينها، والليل مع هذا المزاج يحترف تأجيج العواطف. أجبتها وأنا مبتسمٌ، كأني أؤسس قصة حب معها. الرجل إذا ما بحث عن الحب، سيرى في كل امرأة تبادر بالحديث معه قصة واعدة.

كانت محادثتي مع سارة طويلة جدًا، تخللتها الكثير من الاعترافات والذكريات المدفونة في قلب كل منا. فتحت سارة قلبها على مصراعيه دون مقدمات. جعلني هذا أتساءل عن ثقتها بي بهذه

السرعة! تذكرت زوجة أبي، كانت تقول لي باستمرار: كيف تجعل الناس يثقون بك بسرعة؟

كانت المكالمة في بدايتها رسمية، أثنت فيها على مدونتي. سألتها:

كيف استطعتِ الوصول لها؟

قالت: تصفحت حسابك على الفيس بوك، وكان هناك تطبيق أنت مشترك به، يربط ما بين المدونة والفيس بوك!

تنهدت متعجبًا، أحاول استذكار ذلك التطبيق وقلت: لا بد أنك قضيتِ وقتًا طويلًا وأنت تتصفحين حسابي، فأنا على ما أذكر مشترك بهذا التطبيق منذ عام ونيف.

ضحكت وقالت: منذ عام وتسعة أشهر بالضبط!

اكتمل نصاب ذهني، واستيقظت فيه كل الخلايا النائمة والميتة، والتي تكمن وظيفتها الجينية في إدراك طبيعة العلاقة بين الجنسين. قلت: لا بد أنك الآن تعرفين الكثير عني، فأنا منذ عام وتسعة أشهر بالضبط لم أعتد على المحافظة على أي خصوصية لحياتيّ على حسابي الافتراضي.

لم تكن خجولة أبدًا في صراحتها بالحديث.. كانت تجيب دائمًا بشكل غير متوقع، كمن يحرك أحجار الشطرنج بسرعة، دون أن يخطأ. يبدو أنها كانت تتعمد أن تكون مختلفة معي، حيث قالت:

نعم أصبحت أعرف الكثير عنك، وأكاد أجزم أنك برج الأسد، بالرغم من إخفائك لتاريخ ميلادك، وهذا كان واضحًا من خلال

هذيانك العاطفي في كتاباتك، وانتقالاتك غير المتوقعة من العتاب إلى الأمل وتارة من العذاب إلى السكينة.

في الواقع، جذبتني جدًا طريقتها في الحديث. لولا بعض المزاح، لما استطعت أن أجاريها في الرد. لكني رغم ذلك قلت:

لا شك بأنك ضحية قصة حب موجعة مع رجلٍ من برج الأسد، فالمرأة التي تعشق رجلًا برجه الفلكي الأسد، تصل معه لذروة الحب والألم. وعلى سبيل هذا التحليل، سأفترض أنك برج الحمل، كون معظم ضحايا الأسد هم سيدات الحمل!

فاجأتني بجواب لم يكن راجحًا في حسباني:

أنت مثل ورمٌ خبيث في الذهن، تصيب الفرد بطيش، كما الرصاصة في هوجة الفلتان.

كلامها كان صادمًا بالنسبة لي، فنحن لا نعرف بعضنا سوى من أيام قليلة. كيف تقول كلامًا بهذا العمق والجرف اللامتناهي من الرمزية؟! اجتهدت لكي أجعل الحديث يسير على نحو واضح بلا تلغيم في الكلام، وقلت لها ممازحًا:

فتاة خليجية تعيش في بريطانيا، بيئتها هادئة، علاقتها باللغة تترنح على حافة لزجة،من أين سقطت في مفرداتك مصطلحات كالرصاصة والفلتان؟ يبدو جليًا أن دهاء وكيد المرأة الشرقية مرتبط جينيًا في تكوينهن، مثله مثل الملامح والصفات الجسدية. ويبدو أنك لست بحاجة لمعرفة شيء عني، فقد حصلت على الكم الأكبر من المعلومات

قبل أن تحادثني. لذا، اسمحي لي بالتمرد قليلًا، وأن أترك فضولي يسألك مباشرة من أنت، وكيف لي أن أعرف كل شيء عنك مثلما فعلت؟ هل هناك مشكلة أن تحدثيني عن نفسك؟

كنت أتقمص دور الطبيب النفسي في دعوتها للحديث عن نفسها. بدأت بالفعل ذلك، وقالت دون أن أقاطعها:

أنا عكسك تمامًا، لست مزاجية، أُحكم عقلي وأهمل عواطفي في بناء آرائي، ولا يستطيع أحد أن يؤثر على قراراتي مهما كانت صلة علاقته قريبة مني. الفكر هو معياري في التعامل مع الناس؛ من هذا المنطلق أقبل أو أرفض الآخرين. ذو الفكر الذي أمقته، تظل تتراكم بيننا الحواجز، إلى حد الانفصال الكلي. وقد اضطررت لأخسر الكثير من ذوي الفكرِ الذي لا أحترمه.

أنا لست مثلك، لا أتعامل مع أنصاف الحلول، ولا أثق بأنصاف البشر، خصوصًا المتحولين، والمدعين، والمتكلفين، والمنافقين، والمتناقضين، والمتسخين، والمستنسخين، والمتطرفين، وذوي العقول الضيقة، والمسرفين بالتأثر بآلامهم، والمتاجرين بأحزانهم، والمستهزئين، والملفقين، والمصغرين، والمبالغين في المدح والذم، والمسرفين بلطفهم، والشاعريين جدًا، وبائعي الكلام والهوى، والمتقمصين، والضائعين، والمبذرين، وكل من يفتي بشيء دون علم أو وجه حق.

بدأت أشعر من خلال حديثها برغبتها في المعارضة وحسب. بعض الأشخاص يتقرب منك لدرجة كبيرة كي يحطمك بشكل كامل؛ لذا كان هذا الظن كفيلًا بأن يضع حدًا ضد أي مبادرة حب قد أتفوه بها تجاه سارة. رغم ذلك أجبتها محتدًا باختصار:

كل ما تعرفينه عني لا يعطيك الحق بأن تصدري أحكامًا على شخصي، مثل قولك: "أنا عكسك" أو "أنا لست مثلك"، ثم تبدئين بسرد صفات لا حُسن فيها، تجزمين ضمنيًا بأني مصاب بها.

يبدو أنها شعرت بحدتي وغضبي من الجواب، وبدأت تتراجع عن هجومها غير المباشر، وأصبح حديثها أكثر نعومة وشاعرية، حتى وصل الشبق منتهاه!

مرت أول ساعتين ولم ينتهِ الحديث. المكالمة أخذت طابعًا مغايرا تمامًا لما كانت عليه من هجوم في البداية، صارت أكثر صراحة وحميمية، ولم تخل من التلميحات الإباحية. سألتها عن فترة حياتها بالخليج، وهل ستتزوج من رجلٍ عربي أو لا، وتطرقت لبعض الأمور الشخصية جدًا بالنسبة لها. أجابتني باختصار عن شكوكها بوجود رجل يحبها لنفسها، لا لجنسيتها البريطانية أو لكونها خليجية. قالت إنها تعاني فوبيا من الرجل الشرقي والعربي تحديدًا، الذي يطمع في المرأة التي يمكنه من خلال الزواج منها اكتساب جنسية أوروبية. وأشارت أيضا لهاجس انتهاك حر مالها، الذي يشجع أي شاب للتقدم إليها، كونها من أسرة ثرية جدًا، بالمقارنة مع المستوى المعيشي للشباب العربي.

تعاطفت بحذرٍ مع حديثها ورؤيتها للموضوع من هذه الزاوية، فقد كان يتبادر في ذهني استفسار وسؤال يعارض سياق عرضها للموضوع. قد كنت فظًا جدًا حين قلت لها:

هل تعتقدي بأنك مثال للكمال بمنطلق المميزات التي ذكرتها، والتي تؤهلك لإصدار أحكام على الشباب العربي وتعمميها بغير وجه حق؟ ثم إذا كنت لا تثقين بهم وتعانين من فوبيا شديدة من التعامل معهم، لماذا اتصلت بي؟ أنا من هؤلاء الشباب، وما زلت بعيدًا عن التنصل من ثقافتي وأصلي!

ردت بتردد ونعومة: أنت مختلف!

فهممت بالإجابة سريعًا وأنا محافظٌ على حدتي:

أنا لست مختلفًا عن أحد. ليس ذلك وحسب، أكره هذا النمط من الحديث الذي تتبناه الطبقة التي تنتمين إليها. دائمًا تظنون أنكم عرضة للاستغلال، وعلى الدوام ترددون هذا الكلام. لا أدري إذا كان لديكم جناحين خلف ظهوركم، تميزكم عن البقية ونحن نجهل ذلك. إنه النقص الذي تعانون منه، والذي يتمثل برغبتكم بأن يكون الكل طوع أياديكم، أو تحتاجونه لتبرير فشل ما على أحد الأصعدة. تهاجمين أنصاف البشر، لكن أشعر أنك تتطبعين بمعظم طباعهم. قاطعتني بجملة استفزتني بشكل عارم وقالت:

أنت لا تستطيع أن تنسى أني خلال خليجية خلال حديثك، ولا يمكنك أن تشفع لي هذا!!

قلت بغضب: لن تستطيعي أن تقحميني في أي حوارٍ شبه عنصري، خصوصًا بأي شيء يتعلق بعروبتي التي أعتز بها عن قناعة، وليس مجرد شعار أتغنى به؛ بغض النظر عن قدرتي على مناظرة أي مسألة تتعلق بهذا الموضوع. لقد عاشرت العديد من العرب من مختلف

الجنسيات في مصر، وعشت معهم جنبًا إلى جنب في مدينة 6 أكتوبر، التي تحتضن العرب من كل البلاد. لم أشعر بأي شيء من الوهميات المقيتة، والتي لا أعلم حقيقةً من يصدرها لنا لبث التفرقة، وأعلم أن رماد هذه الأفكار ما زال يعمينا حتى الآن، ويتراكم يومًا بعد يوم. لا يجدر بك أن تتفوهي بما قلت الآن.. أظن أن عقليتك أكبر من هذه الصغائر.

قاطعتني قائلة: أنا أشعر بالخجل مما يحدث في العالم العربي، وأنكر أمام أصدقائي في بريطانيا حقيقة أصولي العربية.

لم أجعلها تستفرد بالحوار، وقاطعتها بفظاظة على فور، وقلت ساخرًا:

نعم، نعم، فهمت أنتِ من أولئك الذين ينظرون لأوروبا على أنها جنة أفلاطون الفاضلة، وتتناسين عن قصد أو عن جهل حقيقة التاريخ والصراعات العنصرية والدينية، التي كانت تنفجر كالبراكين في مختلف البلاد الأوروبية.. الجنون كان يقودهم.. لا أريد أن أتبلى على أحد، لكن الحضارة الأوربية قامت على بحور من الدماء، وقدر كبير لا يستهان به من استعباد المستضعفين في الهند وأفريقيا والبلاد العربية، ومع ذلك من النادر جدًا أن تجدي أوروبيًا ينكر على نفسه أصوله. نحن جميعًا مصابون بمرض تعظيم الغير وإهانة أنفسنا. ومع ذلك، فينا من النرجسية ما لا يطاق احتماله.

قالت بعصبية: أنت تتغنى بأمجاد الماضي. ما زلت تعيش بين الكتب والورق والأحلام. انظر مستوى الإنسانية التي تنعم به أوروبا،

والحرية التي يتمتع بها حتى اللاجئون العرب هناك، لا تنظر للأسفل وتتجاهل القمة، لا أحد ينظر للسماد والتراب ويهمل الوردة.
احتدم النقاش بيننا جدًا، لم يسعني صبري.. أردت الرد على كل نقطة ذكرتها أولًا بأول، لكني احتفظت بقدر من التأني حتى انتهت، وقلت:
نعم أعترف بالمستوى الديمقراطي والإنساني الذي يعم بلادهم، لكن صورة الوردة لم تكتمل في نظري، ومعك حق، اللاجئون العرب هناك يتمتعون بحقوق كبيرة، لا يستطيعون الحصول على نصفها في بلادهم. لكن أي إنسانية في ذلك؟ أوروبا تفتح باب اللجوء أمام المنكوبين، بشرط أن يمروا عبر قوارب الموت. لا أدري هل الإنسانية تقتضي ذلك، أو أن عقلي ما زال مدفونًا بالأحلام! هل فعلًا أنا أفتش فقط في أخطاء الآخرين، كي أخفف من حقيقة وضعي؟ تلك الأشياء لم أصل لإجابة شافية لها.

ردت بهدوء، مناقضة للحدة التي وصلنا لها:

لا أستطيع أن أجاريك الآن، فأنا بالفعل ليست لدي المعلومات التاريخية الكافية، سواء لأوروبا أو للعالم العربي. لكن ستجمعنا نقاشات كثيرة أخرى. هل من الممكن أن ننهي الحوار في هذا الموضوع؟..

لم تنتظر ردي.. استطردت:

قرأت لك نص أحبك بسلوك مختلف، لديك إحساس مرهف جدًا.

استطاعت امتصاص غضبي بسهولة.. أعترف بقدرتها على ذلك، رددت وأنا أبتسم:

تقصدين نص "أحبك بسلوك غير مألوف"!

ضحكت وقالت: لا يجدر بك التركيز كثيرًا؛ حاول أن تكون حليمًا معي نوعًا ما، ففي النهاية أنا امرأة ويفترض عليك ككاتب أن تتعامل معي برقي غير مألوف.

أردفت قائلة: لماذا لا تفكر في تأليف كتاب؟ لك أسلوب جيد في الكتابة، ستحبه النساء.

وصار الحديث على نحو سريع بالاجابة والسؤال.. قلت لها:

لست جاهزًا لهذه التجربة الآن؛ ربما في وقت لاحق.

قالت: لا، بل تستطيع.. سأدعمك حتى تبدأ بذلك.

صمتت للحظة بعد ذلك، وحاولت أن أتأكد أنها ما زالت على الخط، فردت وقالت لي: ثوانٍ؛ سأرد على صديقتي.

ذهبت لأضع هاتفي في الشاحن، إلى أن عادت للحديث وسألت:

أتعلم على من كنت أرد الآن؟

قلت: بالطبع لا؛ أنا لا أعرف من أصدقائك غير "لي ياني".

ثم كررت السؤال بطريقة أخرى، وأشارت لموضوع قد تحدثت عنه معي من قبل:

أتذكر صديقتي ريم، التي حدثتك عن قصتها في أول لقاء؟

قلت: نعم؛ ما زال تأثير قصتها يراودني حتى الآن.

صمتت، ثم قالت بشيء من الاندهاش: تخيل أن ريم من المعجبين بكتاباتك، وتقرأ مدونتك منذ أنشأتها على ما يبدو. كنت للتو أرد على رسالة تستفسر بها عن علاقتي بك!

ريم

بُعدٌ عميق يبعدني عن سؤال سارة عن طبيعة علاقتها مع المدون، لكن الفضول سبقني إليها. ما يحيط الموضوع من غرابة دفعني لمغالبة الحياء وسؤالها كيف عرفت بهذا الكاتب. شيء آخر –دام عزه– لقد انتبهت أنها غيرت منذ أيام محل إقامتها إلى مصر!

مصر، كانت بوابة الحوار التي دخلت منها. حدثتني عن رغبتها بدراسة اللغة العربية في مصر، إلى جانب مشاريعها في العمل التطوعي مع إحدى مؤسسات المجتمع المدني المهتمة بالتبادل الثقافي العربي الأوروبي.

لم أدقق في التفاصيل، وسألتها بطريقة يغلب عليها المزاح: منذ متى تتابعين كاتبي المفضل، خصوصًا كون كتاباته في معظمها عاطفية، وهذه النوع من النصوص أبعد ما يكون عن اهتماماتك؟ ضحكت، وأخبرتني أنها بالفعل لا تهمها الكتابات الرومانسية مطلقًا، وقالت إنه مجرد صديق فلسطيني، تعرفت عليه في مصر، واسمه آدم. انتهى الحديث عند هذه النقطة. لكن سرعان ما وجدت نفسي أبحث عنه في قائمة أصدقائها. ذهبت لقائمة الأصدقاء المضافين مؤخرًا لديها، ولم أغلب في البحث عنه، فلم يكن لديها غير صديق واحد يحمل اسم آدم. بلا تردد، فتحت ملفه الشخصي.

"يخلق من الشبه أربعين"!.. عثرت على واحد، ما زال هناك 39 شخصا آخر يشبه نبيل، لم أعثر عليهم!

إنها ليلة غريبة بكل أغانيها.. تأثير لقائي مع والدي لم ينته بعد، فعقلي لم يستسغ فكرة هذا العرض المغري، وأنا التي طوال حياتي لا تخرج إلا بوجود شخص يراقبها. الآن –ومع حساسية وضعي المفترضة– يخيرني والدي ما بين العمل أو الدراسة في الخارج!

لم يكن في عقلي موضع أبدًا للوعي بتعبي وارهاقي تلك الليلة. صخب الأحداث وكثرتها، التي لا يطيق يومٌ تحملها، كان كفيل أن يتجاهل الإدراك ألمي ودمعة الدم التي سالت من شفتي وداويتها بقلم الحمرا. على نحو متسارع جدًا بدت حياتي تلك الليلة متغيرة بسرعة غير مسبوقة.. المفاجآت والصدمات تتساقط على رأسي كمطر الطوفان، حتى اكتشفت فجأة أن الوقت تأخر جدًا والصباح شارف على الانبلاج، فرتبت أشيائي، وأطفأت نور الكهرباء، ودسست نفسي تحت اللحاف، وغرقت في النوم، بعدما احتدمت المعركة بين النعاس والتفكير.

آدم

"بالمناسبة، أنا لست برج الحمل، بل الحوت. تصبح على خير"

كانت هذه الكلمات آخر ما قالته سارة، في تلك المكالمة التي استمرت حتى ساعات الصباح الأولى.

في مساء اليوم الذي اعتذرت فيه عن لقاء "لي ياني" في القهوة، وبقيت في البيت أدرب عقلي على التركيز والتخمين.. فالأفكار التي ترجمتها أحلامي لمشاهد وسيناريوهات كثيرة لم تكن لتمر مرور الكرام. افترضت أن رحيل القمر –الفتاة التي تتابعني منذ افتتحت مدونتي– هي نفسها ريم صديقة سارة، هي نفسها المرأة التي تفوقت على وجعها، ورفضت بصرامة الرجل الذي مس شرفها باتهامٍ لا عدل فيه.. هي نفسها المرأة التي اختارت لعمرها العيش على بصيص أمل، بدلًا من أن يتعفن مع رجلٍ أرغمت على الزواج منه.

لم أعط مجالًا كبيرًا للتخيل ليقتحمني ويصبغ الوضع بدرامية أكبر مما هو عليه. كنت أخشى عليه من التكلف، حتى لا يفقد إنسانيته. توقفت عن التفكير بالقصة من هذا الجانب، وسارعت بالوصول إلى مدونتها، حتى أتأكد بأن رحيل هي نفسها ريم. لكنها لسوء الحظ، لم تكن تضع أية معلومات على المدونة، سوى صورة لباقة من زهور

الأوركيد في المكان المخصص للصورة الشخصية، وأبيات شعرية لمحمود درويش يقول فيها:

" لا، لستُ شمسًا ولا قمرًا

أنا امرأةٌ، لا أقلّ ولا أكثرَ

أنا مَن أنا، مثلما

أنت مَنْ أنت: تسكُنُ فيَّ

وأسكُنُ فيك إليك ولكْ

أحبّ الوضوح الضروريّ في لغزنا المشترك."

أن تكتب بهذه المفردات البسيطة هذا العمق اللامتناهي للمعنى لهو إعجاز يحتكره محمود درويش له وحده.. وأن تصطاد مثل هذه الأبيات من مئات القصائد الدرويشية، لتختزل فيها وصف شخصيتك، فهذا يعكس تبحرك في القراءة، وانتماءك للمجتهدين في البحث عن صورة الإنسان الأعلى. هكذا أحلل الأمور دائمًا، بصورة زاهدٍ لا يخاف الغابة، ولا يهمه الإبحار في كل ما يبدو عاديًا. إنه أثر إدمان الكتب الفلسفية لفترة طويلة.. الكتب التي أعادتني لدهشة الطفولة!

أفقت من شرودي في مدونتها الكلاسيكية، المهملة إلا من الزهور والشعر، لأجازف بالبحث عنها في حساب صديقتها سارة. لم يكن الأمر سهلًا.. كان في قائمة أصدقاء سارة أكثر من امرأة تحمل اسم ريم. اضطررت لأفتش في كل تلك الحسابات، التي كانت معظمها بلا

صورة شخصية حقيقة. لكني تعثرت بصورة الأوركيد والأبيات الشعرية الدرويشية في صورها القديمة بألبوم الصور الشخصية المفتوح للجميع.

هل كنت على عتبة جبل؟ أو ربما على حافية هاوية؟.. كنت أجلس كالظلِ على الكرسي، أتجاهل ماذا يعني ما أفعل، فأنا في ظلمة العالم الافتراضي، أغامر بقلبي!

في غمرة مزاجٍ استثنائي، أرسلت لها –دون تردد– طلب صداقة. إضافة صديق، لا أعرفه على المستوى الشخصي، لم تكن بتلك البساطة بالنسبة لي.. كان المبدأ مرفوضا من جذوره، وأراه ك "تورط" في حياة بُناؤها الضوئي وصلات وأسلاك وكهرباء. سمعة هذا العالم لَيست جيدة على ألسنة الناس، كنتاج بديهي لتقدمنا الكبير في استخدام الجانب السيء منه، وإهمالنا حقيقة تأثيره على الواقع، وعدم رؤيتنا إلا أشياءً ضبابية من الإيجابيات.

ساعتان مرتا على طلب الإضافة دون القبول.. استفاقت فيَّ منطقة المشاعر السيئة، والتي يسميها البعض "الحساسية المفرطة"، وبدأت نفسي تطرح بخسَّة أسئلتها على نفسي، وتصطاد تخمينات تقلل من ذاتي. أليس من الوقاحة أن أضيف صديقة صديقتي دون أن أستأذن؟.. ثم لماذا لم أصبر بعض الوقت، لعلها تتجرأ وتضيفني هي أولا؟

انتعل التأويل مزاجي من القمة للحضيض. في مثل هذه الحالة، لا يسعفني إلا فنجان شاي بالمرمية وثلاث ملاعق سكر، وبما أن المومية

غير متوفرة في مصر على غرار فلسطين، فالنعناع أقرب الحلول البديلة للنكهة المنشودة. النعناع.. مفيد جدًا هذا العشب للأعصاب، خصوصًا مع أغنية من السبعينات، وصوت ينتمي لكوكبة الرحابنة. اخترت أغنية "بيني وبينك يا ها الليل"، غنتها جورجيت صايغ وهدى حداد، شقيقة فيروز، تقول في مطلع كلماتها:

"بيني وبينك يا ها الليل.. في حب وغنية.. على بابي بتقعد يا ليل.. وبتسهر ليلي.. بيني وبينك في أسرار.. وبتعرف أحزاني.. تبقى امرق لي ع هاك الدار.. وقله ما يتساني.."

أي شيء يتعلق بفن الرحابنة، سواء كان من كلمات أو ألحان أو غناء، له علاقة وطيدة بتسرب وتسربل السكينة إلى ثنايا نفسي. أتقرفص على الكرسي، وأتمايل مع الموسيقى كالمراكب الضعيفة فوق الموج، أطير وأحط.. إلى أن جاء الفرج.. ومض ضوء أحمر في خانة التنبيهات.

اعتدلت في جلستي بسرعة وهمية، وضغطت على شارة التنبيهات. كانت الشارة تنوِّه بقبول ريم لطلب صداقتي. ضغطت على الشارة، فظهر أمامي ملفها الشخصي كاملًا، بكافة المعلومات والصور والكتابات والمنشورات، منذ أول يوم قامت بإنشاء الحساب فيه.

بدأت على الفور بالتنقيب عن أي معلومات تعكس شخصيتها الحقيقة، أو عن هيئة تخيلية تعكس ماهيتها في الواقع؛ لكنني لم أوفق في ذلك، فحاولت البحث عن صورة لها، ولم أجد. كل ما وجدته يوحي بامرأة حالمة لكن هاربة.. جريئة في الحلم، مترددة في الواقع. امرأة

محاصرة، إلا من نافذة تطل على هواها، ترغب بالهروب والقفز منها، لكن تخاف السقوط والكسرة.

فجأة ومض ضوء باللون الأخضر فوق شريط المهام. كان بديهيًا أن يأخذني هذا الضوء إلى شعورٍ أكثر اتزانًا لأسيطر على سعادة غامرة انتابتني.. كنت سأعاني حقيقة في اتخاذ قرار البدء في المحادثة أولًا.

لم تكن هذه النقطة عادية مطلقًا بالنسبة لي، خصوصًا مع ريم. منذ اللحظة الأولى التي ذكر اسمها على مسامعي هزمت قلبي واختلطت بمشاعره. لم يذهب عني تأثير سكرتها الموجعة حتى الآن. هذا ما شجع قلبي أن يغدق بالمشاعر، في إطار موقفٍ يعتبر عاديًا بالنسبة للجميع، وبالنسبة لي أيضًا.

بدأت حديثها على توجس، بالترحيب الروتيني والسؤال عن الحال، ثم سألتني:

– هل أنت مشغول؟....

شعرتُ بأنها تريد الحديث بشغف، لكن لم يسعفها ذهنها بالعثور على موضوعٍ تتحدث فيه. في لغة الدردشة، النقاط بعد السؤال تعكس الرغبة الجامحة بالحديث؛ لكن على تمنع.. بمعنى: أريد الحديث معك، لكن دعني أشعر برغبتك الجارفة في مبادلتي أطراف الحوار.

– نعم، مشغول بتصفح كل ما قمت بنشره على حسابك، يبدو أنك متيمة بالشاعر الفلسطيني محمود درويش، وهذا أول مفترق نتلاقى به.

تأخرت بالرد. إنها الآن تلتقط أنفاسها، بعدما اخترقت خصوصيتها بشكل عفوي.. وقبل أن أحاول محاورتها في أي شيء كي أشجعها على الحديث، قالت:

– أنا متيمة بكل ما هو فلسطيني.. بمحمود درويش، وغسان كنفاني، وسميح القاسم، ومريد البرغوثي، وتوفيق زياد، وإميل حبيب.

تفتحت ملامح وجهي، وعيناي زاد اتساعهما، وذهني أهمل السخافة كليا. جوابها أسعدني بشكل منقطع النظير.. فكرت في إجابة تبهرها، لكني عجزت عن ذلك، فتركت نفسي تقول ما جادت عفويتها:

– الحمد لله أني فلسطيني.. أخيرًا وجدت امرأة عربية تحفظ أكثر من خمس أسماء لأدباء فلسطينيين، بل وتقرأ لهم أيضًا.

بالعادة، الحديث مع النساء على الانترنت لا يأخذ هذا الطابع. يكون الدخول بأي موضوع مرتبط بالمزاح والتلميح، والابتذال في استهلاك الأنا.. لكن الحديث في الثقافة والأدب يفرض –بصورة أبدية– الاحترام المتبادل بين الطرفين، وكان هذا كفيلًا بأن يخلق أول خطوة مميزة في علاقتي مع ريم.

أعتقد أن إجابتي رسمت بسمة على وجهها، فقد كان ذلك جليًا من ردها، حيث أردفت قائلة:

– وناجي العلي، وإدوارد سعيد، وإبراهيم نصر الله.. كما أحب موسيقي الثلاثي جبران، وكل من غنى أو كتب لفلسطين. قلبي تربة فلسطينية، ينمو فيها الزعتر والزيتون، ويفوح منها عبق المرمية والنعناع.

ما أجمل الاختلاف! حقًا، حبيبة قارئة ومثقفة كريم لن يُمل منها، ولن تجلس بجانبك دون أن تجد شيئًا لتحدثك عنه. هي على عكس المرأة العادية التي تنفق في أول الحب كل الكلام المعسول والممشوق، عبر المكالمات الليلة الطويلة، والتي تمل منك وتمل منها في وسط الحب وقبل كدر الأيام. فالمرأة القارئة لا ينتهي ولا يمل معها الحديث، لديها الكثير لتقوله لك، والكثير من التركيز لتسمعك.. فتاة تقرأ –مثل ريم– يرغبها العقل قبل القلب.

ولُدت لدي رغبة قوية بأن أثير إعجابها وأستحوذ على اهتمامها.. ثابرت بالحوار معها عن الأدب الفلسطيني، فصدمتني بثقافتها، حيث كانت تعرف عن فلسطين أكثر مما يعرفه الفلسطينيون أنفسهم، في مجال الأدب والفن والعلوم.. أخذنا وقتًا طويلاً بالحديث عن ذلك.

على عكس المعتاد ببدايات التعارف، لم تتطرق إلى أي معلومات شخصية، ولم تسألني كيف وجدت حسابها، ولا ادعت أنها لا تعرفني. كان حديثنا مع بعضنا البعض أشبه بحديث اثنين يعرفان بعضهما منذ فترة طويلة.

سافرنا بالكلام إلى مدن وبلدان.. تجولنا كثيرًا بين مطرق الكتب وسنديان الكُتاب.. حلقت أجنحة أفكارنا من الخليج للأردن، ثم لبنان، حتى وصلت بنا إلى مصر.

شيئا فشيئا، بدأنا نتغلغل في خصوصيات بعضنا البعض. قالت لي بارتياح، شعرت به من حماستها في قوله:

– أنت تشبه شخصا عزيزا جدًا بالنسبة لي.. هو فلسطيني مثلك.

لم ترُقني هذه الجملة أبدًا. أنا ما زلت أعاني من أنانية الشرقي المفرطة؛ أريد أن أكون أنا الشخص العزيز الوحيد في حياتها. لكن بحكم الوضع الحالي، روضت هذا الشعور، وقلت ممازحًا:

– وأنت أيضًا ربما تشبهين شخصًا عزيزًا عليّ. هذا يعتمد على صورتك، التي سترسلينها لي، في الوقت الذي تشعرين فيه بالثقة بي.

أعترف كم كنت خبيثًا فيما قلت. أن ألمّح جملة عادية بطلب، بشكل غير مباشر، لهو شيء مزعج، لا تتقبله أكثر النساء، خصوصًا وأنا أعرف حساسية هذا الموضوع بالنسبة لها، كونها مطلقة، وأعرف الأفكار السلبية التي قد تراودها، ومتأكد بأنها لن ترسلها.. لا أدري لماذا فعلت ذلك!

قابلت ريم كلامي بصمت طويل نوعًا ما. حاولت التفكير بمخرج من قفص الإحراج الذي وضعت نفسي فيه، فأصابتني عدوى الصمت مقابل صمتها. زادت خفقات خافقي، حين ظهر أسفل صندوق المحادثة رسم دقيق يعني أنها تكتب ردًا على رسالتي..

ريم

رفعت يديّ للسماء، وفتحت هناك أصابعي وأعدتهم لضمتهم عدة مرات، تعبيرًا عن فرحتي بإرسال آدم طلب إضافة لي. تمنعت عن قبول اضافته في البداية.. لكن في النهاية، صار ضمن قائمة أصدقائي.

في ذلك الوقت، وقبل أن أبدًا بالحديث مع آدم، كنت أشعر بدوار حولي، وقصم في جسدي، وهشم في ذهني.. أمضغ ترددي والأحداث المتلاحقة التي اعترضتني، وأحاول أن أهضمها بالقدر الذي أستطيع. اقتحمت أمي خلوتي، وحذرتني من اصفرار وجهي وبهتان ملامحي مع التعب، فمنذ الصباح لم أتناول إلا قهوتي وقطعة شوكولاتة. وبالإضافة لحدة التفكير التي لازمتني منذ البارحة، كان هذا كفيلا بأن يقضي على جسمي الهزيل، والذي يواجه العديد من المشاكل، مثله مثل مركب صغير في عرض البحر، آيل للغرق.. لا الرياح ترحمه، ولا الموج يحن عليه، ولا حتى القمر يرنو إلى عظمه.

الغريب، أني كنت أفكر بأشياء لا علاقة لها بالأمور التي جدت على حياتي. فكرت في زميلاتي اللاتي تخرجن، واللاتي تزوجن، واللاتي أنجبن، واللاتي أوشكن على الحصول على درجة الماجستير العليا في تخصصاتهن، واللاتي يربين ويعلمن أبناءهن.. وأنا التي لا أربي سوى الطيور والحيوانات في المزرعة السعيدة.

فكرت بدولاب ملابسي، الذي يطفح بالملابس الجميلة والمثيرة، التي لا أجد مناسبة لكي أرتديها.. فكرت بصور صديقتي، التي أرسلتها وهي في رحلتها التي قضتها في باريس مع زوجها وابنها الصغير.. لم تكن ترتدي الحجاب في فرنسا، رغم أنها هنا لا تخرج من دونه. زوجها لا يمانع في ذلك؛ لا أدري ما هذه الازدواجية، لكني سرعان ما أجد نفسي أقول هذا ليس من شأني، فلماذا أفكر بذلك..

وكأنني امرأة محبوسة في ثلاجة الموتى، أرى في عيون الجميع نظرة لا يريدون بها أن يروني على قيد الحياة. فكرت في أخي، الذي تتزايد إهاناته، إلى الحد الذي أخجل معه من استذكارها والكتابة عنها.. لا أدري كيف لهذا العقل أن يحتضن عاصفة!

أحدث نفسي وأقول: لا يهم، المهم أني حصلت على صك الغفران من والدي، وسأرتاح قليلًا من هذا القالب القصديري الذي أعيش فيه. سأفكر في العمل لاحقًا، الدراسة ذكريات وأحلام، راحة وحرية.

لا، ليس هذا المهم وحده.. المهم هذا الـ "آدم"، الذي ظهر فجأة في حياتي، وشابهَ أغلى ما تمنته حياتي. لا ليس هذا المهم أيضًا.. المهم أن سارة في مصر.. فكرة وجودها في مصر مشجعة للدراسة هناك.. نعم، أحتاج فقط لدفعة معنوية لاتخاذ هذا القرار.

كان حديثي مع آدم جميلا من البداية. لقد بادرت بالتحية، لأختصر الوقت على نفسي وعليه. ناقشته في الكثير من الأشياء التي أحبها، والتي كنت أشتهي جدًا أن أجد أحدًا يبادلني الاهتمام بها.

كنت مندفعة بالحديث معه عن الأدب والموسيقى وفلسطين.. لكن، عند نقطة معينة، وتحديدًا عندما تغير مجرى الحديث إلى النهر الشخصي، سقطت نقطة سوداء في صفوة المياه التي شدتني إليه كثيرًا.

رغم الألفة الغريبة التي أحسستها، إلا أن شعور أشبه بالخوف حام حول نفسي. ليس الخوف منه تحديدًا، بل الخوف من الظهور بشخصيتي الحقيقة على الانترنت. القصص التي أسمعها عن الانترنت تجعلني أرتعد رعبًا قبل أن أفكر أن أكشف شخصيتي لأحد، خصوصًا وأنا لا ينقصني أي مثقالٍ فوق وزن الوجع الذي يحط على كاهلي.

حين طلب آدم صورتي، سرحت في اللاشيء، أفكر باللاشيء، وغضبت من لاشيء!

لماذا شعرت وكأني استيقظت من حلم جميل على واقع مخيف؟ هذا طلب متوقع جدًا؛ لكن يحول بيني وبين إجابته تربية أكثر من عشرين عاما. يدفعني شيء من التمرد لإرسالها.. ناقمة أنا جدًا على هذه التربية، التي تفرض على الأنثى الأخلاق، والرجال لهم ما شاء أن يفعلوا.. إن أرادت المرأة أن تفعل شيئا، يجب أن يكون بتصريح من ولي أمر.. تمردت.. ولم يكن التمرد الأول في حياتي.

ما زلت حتى اليوم يصرعني التفكير بأسباب تمردي.. هل هو الحب، أو الجفاف، أو الكبت، أو القراءة؟ يقهرني هذا السؤال العنيد، يأخذني لفوهة الجبل، ويقذفني بقوة إلى قاع الأرض. قفزت فوق كل هذا، وقلت لآدم بمزاحٍ أخبئ داخله قلقي:

وماذا ستفعل بصورتي؟ هل تضمن لي أن تضعها في قلبك، وهل أثق بها هناك؟

أحيانًا، تتفوه بكلمات -رغم جمالها- تدفعك بالندم.. ربما باعتبارها طبق من الكرامة قدمته بالمجان لكي ينحره من يشاء، كيفما يشاء. في مثل هذه المواقف، لا يُحسن حُسن الظن زيارة عقلي. فبعدما قلت ما قلت ظهر التنبيه أسفل المحادثة بأنه شاهد رسالتي، لكنه لم يعد متصلًا بالإنترنت!

إحساس بالشفقة على نفسي يأكلني كلما تذكرت ذلك الموقف. لقد هممت مباشرة بإرسال صورتي له، لعلي أسعف هذا التجاهل، وأجد منه ردًا.. وأنا أرسل علامات الاستفهام أستجد وده، كنت أصغر من أصغر طفلة في الأرض.. كيف لهذه التفاصيل الصغيرة أن توجعني مثلما توجعني المصائب الكبيرة بالضبط؟ لا أدري كيف تستطيع التكنولوجيا أن تتلاعب بمشاعري بهذا التكامل الموجع!.. لو أن شيئا ينشق من الأرض ويبتلعني.. لو أن أختفي هباءً منثورا.. نعم، الأشياء التي تمنيتها ليست لأن آدم تأخر بالرد عليّ أبدًا.. إطلاقًا.. بل لقدرة هذه التفاهة أن تحرقني بهذه الحرقة!

على قلق مضت الدقائق، وأنا أقلب صوره، أرى به صورة الرجل الذي أحببته، أو أدركت أني أحبه فعلًا عندما وجدت رجلاً يشبهه. مر الوقت مسافة إطعام طائرٍ في بحيرة الوجع.. مر الوقت، وجاء الرد متأخرًا، لكنه الأجمل، الأجمل.. قال آدم عن صورتي:

أنت أجمل من أمي في صباها!

أي رجل في الدنيا ذا الذي يقبل أن يرى امرأة أجمل من أمه؟! أي رجل يقبل بهذا التنازل الكبير؟! لا شك بأنه يجيد الدخول إلى القلب

بسرعة، بنفسية المنتصر الواثق. الغريب، أني كنت أحس برغبةٍ أن أنتزع اعترافًا منه بحبي، رغما عن العلاقة الطفيفة التي تجمعنا!

أنا لا أجيد تفسير كل شيء في حياتي. وهذا الموقف من ضمن تلك المواقف التي لا أستطيع أبدًا شرحها لنفسي، حتى بعد مرور الكثير عليه. قمت بالرد وأنا أسير بدرب الأدب والاحترام لصورة والدته، فلقد تخيلت كم قوية علاقة الأم الفلسطينية بابنها.. ذلك من خلال قصيدة محمود درويش "أحن إلى خبز أمي"، والتي غناها مارسيل خليفة.

قلت له: "الله يطول لك بعمرها، ما في أحلى من الأم، إنت بس عيونك حلوة".

لم أنتبه يومها بأني أتحدث باللهجة الفلسطينية معه. لم أنتبه حقيقة إلى ذلك إلا اليوم. كانت طريقتي بالحديث معه باللهجة الفلسطينية، بكامل عنفوانها، عفوية.. لكنه لم يتركني طويلًا سعيدة بهذا الإطراء الجميل؛ باغتني على حين فرحة بجواب أحزنني، وأصابني بحرقة وكأن الأمر يعني أعز صديقاتي؛ فقد أجابني بحزن:

"العمر إلك، إمي توفيت بالسرطان.."

كان تأثير هذا الرد قاسيًا على قلبي، حارقًا لحلقي.. أخذت من على الطاولة حبة اسبرين وتناولتها.. الأخبار المحزنة تذكرنا بأوجاع الجسد، الجسد الذي نتغاضى عن ألمه حين نجدف بسعادة في الحياة. أجبت باختصار ينم على عجزي عن التعبير في مثل هذه المواقف:

"البقية في حياتك"

رد مسرعًا، ومحاولًا أن يخرجني من جو الحزن الذي شعر بأني اقتحمته:

"حياتك الباقية.. أنا تجاوزت مرحلة الحزن، المهم آسف تأخرت بالرد، كان معي أحد على التلفون. نرجع لموضوع صورتك، أمسموح أن أتغزل فيها، أو تعتبريني أتجاوز حدودي؟"

لو صدر الكلام عن شخص آخر غير آدم، لكان كفيلاً بأن أنهي الحديث معه في ذلك الوقت. لكن أنا لا أدري كيف أوافق وأقبل كل ما يقوله:

"إنت بحق لك يلي ما بحِق لغيرك.."

شعرت حين أرسل لي رمز الابتسامة اللعين أنه حقق انتصارًا كبيرًا على ضعفي. لكن العبرة كانت بأني لا أمانع بقبول الهزيمة، إذا ما كان آدم غريمي. من هذا الثغرة، التي شعر بها آدم بدهاء شرقي خبيث، طالت الأحاديث معه، حتى وصلت لبرنامج المحادثات عبر الفيديو "السكايب"، ثم إلى الهاتف.

على مدار أربعة أيام متواصلة، كان يسمعني كل ما طاب لأذني من كلام.. كنت إذا ما شكوت له من أبي وأمي ينصحني ويذكرني ببر الوالدين.. لم يكن يسايرني بالغضب أو يتهمهم بالتخلف لكي يرضيني.. كان اختلافه معي بحد ذاته هو مصدر الثقة المتبادل الذي منحني إياه. حتى حين أطرح أسئلة وجودية، لا أستطيع ذكرها أمام أحد، لم يكن يتهمني بالزندقة ولا الكفر. كنت أصل من كلامه لقناعة

تعزز إيماني أكثر؛ ولم أشعر أبدًا بأي نظرة سوء منه تجاه أخلاقي وتربيتي، كوني أقضي ساعات طويلة معه، وأسهر معه حتى الصباح.

أيام بوزن سنين، وجد فيها عقلي كل ما يحتاج لكي يبوح ما في تلافيفه. ومع أني كنت أتعذب جدًا في حياكة الخطط، للهروب من ملاحظة ليلي من انشغالي بالكامل عنها؛ إلا أنني كنت أشعر بالارتياح.. ارتياح كبير.. صرت أشتاق إليه في الدقائق التي يغيبها، أشتاق إليه، وأحن لسماع صوته..

أنا مجنونة فعلًا.. تخطيت بعلاقتي معه كل الحدود، حتى أني صرت لا أمانع أن يراني بلا حجاب. لا أرتدي أمامه ملابس مختلفة عن التي أظهر بها أمام أهلي. كان يمدح دائمًا انتقائي للألوان.. كان يقول إن ذوقي في الملابس أنيق جدًا جدًا، رغم بساطته.

فاتحته بموضوع الدراسة، وحدثت بما طرحه والدي لمستقبلي.. استغربت ردة فعله.. لم أفهم لماذا غضب، كنت أريد نصيحته، لم أرغب بشيء أكثر من ذلك!

آدم

من هذه المرأة التي تستفز إخلاصي تجاه كل ما تبوح به لي؟ من هذه المرأة التي أشعر بالعار إذا ما لمعت فكرة سيئة تجاهها في ذهني؟ من هذه المرأة التي تنتشل الكلام من جوف قلبي؟

أنا أجزم تمامًا بأن ريم من أولئك الناس الذين لا يعرفون الشر، ولا يعرفون كيف شكله.. لا يستطيعون التفكير به.. إن طيبتها وصراحتها جنونية؛ لم أضطر أبدًا لأن أكون خبيثًا في الحديث معها، لم أتصيد لها الزلات في الكلام، فعقلها مثل خزان مضغوط جدًا بالأفكار والأحاديث العذبة، وأنا الوحيد في حياتها الذي استطعت أن أمنحه حرية البوح والتعبير عما يكتنز من أحاسيس ومشاعر.

لم نغامر بالوقت في التعارف على بعضنا الآخر، كلانا نقب عن الآخر بحساباتنا الشخصية على العالم الافتراضي، وأنا اكتفيت بالقليل وبعض الاستنتاجات، لكي أقرأ شخصيتها وحياتها. لكني يجب أن أعترف أني كنت مثل شمس طائشة وقت الظهيرة.. كنت صبيًا طائشًا، يعيش بلامبالاة على قارعة الطريق.. غضبت بغير حق عندما علمت موضوع دراستها. لم يكن سبب غضبي مقنعها لأبرره؛ بل كان انتهازيًا بالكامل. كنت أريد أن أتأكد أن غضبي يعنيها.. كنت وسخًا جدًا بغضبي. في الحقيقة، غضبت لأتأكد من وجودها بحياتي، وتمسكها بوجودي بحياتها.

قلت لها بغضب مصطنع، مع خوف طفيف من الفشل فيما أطرحه من تساؤل بطريقة وصولية:

"يعني إنت بامكانك تسافري ومعك فرصة تدرسي بأي بلد وما خبرتيني من الأول؟ يعني في ايدك فرصة تخليني أشوفك وأحكي معك وأتاملك بالحقيقة وما بتحكيلي؟"

ردت بفزع، شعرت منه بأن الدموع على أطراف عينها:

"آدم، احنا ما بنحكي إلا من أربع أيام.. وهيني بحكيلك"

كان ذلك كفيلًا بأن يخرسني، لكني تماديت في غضبي بدون وجه حق وقلت:

يااااه، يبدو أنوا سعري عندك مجرد أربع أيام!.. ما تخيلت انه معزة الناس عندك وزنها بالوقت. عمومًا أنا ما راح أرجع كلمك، ما راح أرجع أبدًا إلا لتبطلي تحطي لوجودي معك سعر، لا بالوقت ولا بالمادة ولا باشي..

سلام!

قلت هذا الكلام حرفيًا، وحظرتها من حسابي. نعم حظرتها؛ لكني في تلك اللحظة التي فعلت ما فعلت، صرت أشعر برائحة نتنة تفوح مني. أنا لم أفعل هذا إلا لأني واثق بأن طيبة قلبها ستعيدها لي راجية، وستقاتل الجميع لتأتي لمصر. كنت أريد قدومها بأي ثمن.. كنت أؤمن بأن هذه الوسيلة الوحيدة التي تحقق غايتي، وسيلة حقيرة وغاية نبيلة!

شعرت برعبٍ من فشل خطتي هذه. أردت العودة بالزمن إلى الوراء، لأصلح هذا الجرم الذي ارتكبته.. أي شيء سأفعله كي لا

يكون ما كان، فأنا لا أريد خسارتها أبدًا. أنا أريدها فعلًا، فهي الوحيدة التي تفهمني، الوحيدة التي تحدثني بالمواضيع التي أحبها، الوحيدة التي تشبه عيناها عيني شهد..

كنت أظن أن وجعي مع شهد صقلني جيدًا، لكي أكون مخلصًا ورحيمًا بكل النساء. لكني -بعدما فعلت ما فعلت- تأكدت بأن الرجل لا يمكن أن يكون رحيمًا، ولا مخلصًا أبدًا، إلا بنسب متفاوتة، لا تصل بالمطلق إلى حدود الكمال.

ما زاد الطين بله، أني أقفلت هاتفي كي لا أعذب نفسي بالنظر إليه عساه يشفق على سذاجتي وترن ريم عليه.. أغلقت الهاتف، كي لا تعذبني الاحتمالات، وخرجت من البيت لأتناول الطعام. أنا مصاب بداء النوم بعد الأكل، فكانت غايتي بالأكل النوم وليس سد الجوع. فكرت بأكثر الأكلات التي تصيبني بالنعاس والخمول، فلم أجد أنسب من تناول الكشري، فهو الأسرع مفعولًا بالنسبة لي، وفي متناول يدي أن أضع الشطة على الطبق كيفما أشاء، فأنا من عشاق الأكل الحار جدًا، وهذا معروف عن أهل غزة، حيث هم معتادون على وجود الفلفل الأحمر والزيتون وزيت الزيتون والزعتر على كل وجبة طعام يتناولونها أيًا كانت..

طلبت طبق كشري من الحجم الكبير، أكبر من الطبق الذي اعتدت على تناوله، وأكلت أكثر من طاقتي. وما إن خرجت من المطعم وسلكت طريقي إلي البيت، حتى بدأ مفعول النعاس والخمول يملأني، حيث أني بمجرد وصولي لسريري لم أحتج أكثر من خمس دقائق لأنام في سبات عميق...

لا أدري ما الذي دفعني أن أكون نذلًا بهذا الشكل! كيف سمحت لنفسي التسكع في مشاعر امرأة؟ لماذا أجرح امرأة نقية كالتوبة؟ لماذا أحبسها في زنزانة ضيقة، وأحرمنا من نافذة الوصول؟ لماذا لم أمنحها فرصة لتبرير ذنب لم تقترفه؟ لماذا أوجعتُها، وتركت عينيها الساحرتين شاحبتين غريقتين بالدموع؟ كيف أركل امرأة آمنتني على وجعها وسرها ونفسها بهذه السهولة؟..

كنت أعلم أن ريم منحتني بتلك الأيام القليلة ما لم تمنحه لأحد طوال عمرها. كنت أعرف كم أرهقها كل حرف متمرد صدر منها. وكنت أعرف جيدًا جدًا كم ستعذبها الظنون.. أعرف أنها ستحترق وهي تفكر بأني قد أستغل أسرارها.. قد أبتزها.. قد أحرق آخر نبتة حب في قلبها..

لم أكتف بذلك.. حين استيقظت، هاتفت حسام صديقي، الذي تعرفت عليه من خلال "لي ياني"، من هاتف البيت، وسألته إذا كان هناك مشروع للخروج في ليل القاهرة. أخبرني بأنه سيذهب مساء إلى جاردن سيتي، حيث سيقوم من هناك هو وأصدقائه باستئجار مركبة "فلوكة" للاحتفال بعيد ميلاد صديقهم مينا، فسألته إذا ما كان حضوري سيزعج أصدقاءه، فنفى ذلك كليًا وقال إن "لي ياني" هي أيضًا صديقة لمينا، وقد دعاها مينا للحفل، وأردف قائلًا بأننا سنمكث في المركبة لساعتين في النيل، ثم سنتوجه لقهوة البورصة في وسط البلد.

اتصلت بـــ "لي ياني"، وقبل أن أسألها عن شيء، أفادت بأنها تحاول الاتصال بي منذ أكثر من ساعة، كي أذهب معها ومع سارة لعيد ميلاد صديقها مينا.

من الأشياء الجميلة في مصر، أن أي شخص مقرب من صاحب مناسبة معينة، يستطيع ببساطة أن يدعوك لهذه المناسبة، وكأنه بموقع صاحبها بالضبط. طبعًا أجبتها بالقبول، فلقد كنت أريد أن أهرب من الوقت وحسب، وهكذا أستطيع تعذيب ريم، دون أن أشغل عقلي بالتخمينات والتفكير.

كانت "لي ياني" و "سارة" جاهزتين للخروج، فقد كان متبقٍ على موعد حفل عيد الميلاد ساعتان، والطريق من أكتوبر حتى جاردن سيتي يحتاج لأكثر من ذلك. لذا، جهزت نفسي بسرعة، وخرجت لاصطحابهما من ميدان الحصري، حيث كانتا ينتظراني.

الطريف أن سارة كانت تتصرف كأن شيئا لم يكن. شخصيتها مغايرة تمامًا لصديقتها ريم.. سارة امرأة قوية جدًا تحترف اللامبالاة، لا يهمها شيء، لديها أشياء أخرى تؤثر بها على العقل غير عقلها، مغرورة جدًا رغم تصنعها التواضع على الدوام، لكن ريم..

ريم مختلفة كليًا.. طيبتها مصدر آلامها. هي الانسانة الوحيدة التي تعرفت عليها في حياتي، ولم تكن طيبتها نتيجة سذاجة أو ضعف شخصية، بل على العكس طيبتها نقية جدًا، تحاول دائمًا الابتعاد عن المشاكل بحثًا عن السعادة. لقد فهمت شخصيتها جيدًا منذ صارحتني بأوجاعها، التي أعرف أكبرها مسبقًا.

أخفيت عن سارة ما حدث بيني وبين ريم، في نفس الوقت الذي كنت أبحث في عينيها عن سؤال ريم عني. لكن لسوء الحظ، سارة ليست بالمرأة السهلة، وهي ذات عيون غامضة، لا أجد قراءتها.

كانت في البداية شخصيتها الماكرة سببًا لأن تتأرجح ثقتي بريم ما بين الصعود والهبوط، وكنت أقسو على ريم بذنب سارة، حتى أني لم أكتف بما فعلت يومها بريم، بل زدت بكأس النذالة جرعة خسة أخرى، وأخذت عن عمد في الحفل العديد من الصور مع "سارة" و "لي ياي" وصديقاتهن بكاميرا سارة، كي تقوم برفع الصور لحسابها على الفيس بوك، وتراهن ريم، فيحترق قلبها بالظن أكثر أني أفشيت أسرارها لصديقتها سارة!

ريم

في ركضها أعصابي تسابق الزمن، وكل عصب ينافس الآخر على التلف. موحش جدًا أن ترى الأمل في عين أحدهم، ثم سرعان ما تجده يتلاشى هباءً في الهواء.. ما أسوأ أن تعطي اليائس أملًا، ثم تسلبه بغير مبررٍ نافع. استقامت نفسي بآدم لأيام، ثم ارتدت أكثر انحناءً بهروبه، فصرت أشبه بشجرة حدباء، مثل النخيل في آخر عمره.

أعاني من شذوذ الفكرة.. يستحيل الحب بهذه الطريقة.. آدم وهم؛ وهم وأبعد ما يكون عن الحقيقة.. هذه شرذمة مشاعر سقطت من كبت، من جفاف، من أسى، من جزع.. كان يملأ يومي، يحدثني بما أحب، يناقشني بما أهوى، ثم يعذبني لكي أهواه!

لا أريده.. لا.. لا يهم، وليكن له ما يريد.. سأتصل به وأعتذر له.. أنا واثقة به.. أنا ضائعة به.. أنا أريده.. أنا أهذى بالمساحة التي احتلها بي.

يا الله! إني مكسورة يا الله.. لا يمكن أن أكون قد وقعت في حبه! لا يمكن أن أحب بهذه الطريقة النكراء! لا يمكن أن تولد المشاعر دون لقاء وجها لوجه!.. أتضرع إليك يا الله أن أفهم نفسي.. ماذا تريد نفسي؟ وما هذا الهراء الذي احتلني؟!..

تضخمت الصبابة في قلبي، فإذا بي أحاول الاتصال بهاتفه. أحاول الاستسلام له كما يجب، أحاول أن أعيده لحياتي، أريد صوته، كلامه، ردة فعله.. أريد عودته وحسب، والتفاصيل لاحقًا.

"الهاتف الذي تحاول الاتصال به ربما يكون مغلقا"

أريد من الأسطوانة أن تقول بوضوح أكثر، هذا الشخص الذي تحاولين الاتصال به سينحر كرامتك، فابتعدي قبل أن تتورطي أكثر.. هذا الشخص عرضة لأن تحبيه، فداوي قلبك قبل المرض.

وجدت نفسي أرسل له رسائل اعتذار بلا توقف. أسرفت بالأسف، ولم يصل أي رد منه. وكلما أرسلت رسالة له، كنت أشعر بالقرف.. أشعر بالقهر وأنا أُقحم نفسي عن عمد في الضياع والمراهقة.. مزاجي تبدل لدرجة لا تُسعفها القهوة. طوال اليوم أحاول الاتصال به بلا جدوى الوصول إليه. أشرفت جفوني على ضمّ البكاء، لكن بقايا عقلي رحمتني من مثل هذه الحماقة.

ورغم القرف والقهر وتبدل المزاج، دفعتني رغبة غريبة بالحديث إلى سارة، أستفسر منها عن غيابه بسياق عفوي. فتحت حسابها عند منتصف الليل، وقبل أن أقوم بفتح محادثة معها، وجدت عددًا من الصور لها، وآدم، وبعض النساء.. لقد أضافتها سارة قبل دقائق!

ضحكت من قلبي، وسخرت من كلي، أنا التي أمزق نفسي من أجله..

علقت على بعض الصور، ووضعت على جميعها إعجابًا، ثم قمت بتناول هاتفي المحمول، وحذفت رقمه.

تخلصت منه، كأي كابوس ينتهي بيقظة!

آدم

عدت للبيت بعد سهرة جميلة وسط النيل؟ كانت جميلة بالفعل، المركب الذي يحملنا كان يحمل على ظهره من الضحك والمزاح والرقص والفرح ما يكفي مدينة بكاملها. نحن في وسط النهر، وعلى الجانبين تطل الأشجار، في منتصف عرض الماء، النقطة الأنسب للابتعاد عن الضجيج والزحام.. في المنتصف، نرى كل الأشياء صغيرة حولنا، وحدها السعادة هي التي نراها كبيرة.

دائمًا ما أتخيل نهر النيل رجلًا قوي البنية، يحمل على ظهره عناء البلاد، ويرتكز على عناد أهلها وروحهم الندية.. لا شك بأنه هو كذلك بالفعل، فهو الشريان الأعظم لأم الدنيا.

كان من المفروض أن نذهب إلى قهوة البورصة بعد ذلك؛ لكن لوجود الكثير من الأجانب من أصدقاء مينا يزورون مصر لأول مرة، فضلنا الذهاب إلى نزلة السمان لركوب الخيل، حيث ستكون التجربة أجمل، بما أن الليل قد عسس في جذع اليوم. لقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها الأهرامات مضاءة في الليل. النظر إليها من بعيد، من على سفح تل يلخص قليلًا من عظمتها، بلقطة واحدة فريدة وجديرة بالتجربة من على ظهر الخيل. وفي طريق عودتنا من منطقة الأهرامات إلى أكتوبر، كانت "لي ياني" تغني لعبد حليم بشكل مضحك. طريقة نطقها للكلمات باللغة العربية كانت طفولية جدًا.

كانت ريم غائبة تمامًا عن ذهني. كان تناسيها ناجحًا جدًا. لذلك، حين عدت للبيت، عزمت على تصليح تلك الحماقة التي ارتكبتها في حقها. خوف طفيف من خسارتها للأبد، ولشيء من تأنيب الضمير اجتاحني.

جلست لأرتاح على الأريكة وأصلح ما أفسدته مع ريم. وضعت اللاب توب أمامي، وبجانبي الأرجيلة التي كنت قد جهزتها للتو. كنت متوقعًا أن ريم قد أرسلت العديد من الرسائل على هاتفي المحمول، لذا فتحت الهاتف، بعدما كان مغلقًا طوال الوقت.

بمجرد ما إن فتحت الهاتف، حتى توالت نغمة الرسائل على تكرار رنتها. كان عدد الرسائل كبيرًا جدًا، معظم محتواه رسائل اعتذار، باستثناء آخر رسالة.. كانت: "حقير".

وكانت كفيلة بتنبيهي أنه لم يعد لدي متسع من الوقت لأن أكون مزعجًا وخبيثًا أكثر من ذلك. كانت كفيلة أيضًا بأن تذكرني أني ما زلت وضيعًا، كما كنت في الكثير من المواقف مع شهد. يبدو أن الذي يبتلى بداء مثل هذا من الصعب جدًا أن يشفى منه. إن معظم الأمراض يمكن شفاؤها أو التقليل من نسبة دائها، باستثناء الطباع السيئة.. تولد معنا، وتموت وهي فينا.

كتبت لها رسالة نصيًا فحواه: أنا آسف، فعلت ذلك لرغبتي الشديدة في لقياك. أعتذر مرة أخرى، أعرف أني تماديت في غضبي بغير صفة واضحة لوجودي في حياتك.

كنت أعلم مسبقًا تأثير هذه الرسالة عليها جيدًا، وكنت على يقين بأنها ستصلح كل شيء، خصوصًا مع قلب طيب ونقي مثل قلب ريم.

أزعجتني حالتي وأنا أرسل هكذا كلمات، بالنسبة لي مستهلكة، وبالنسبة لغيري مؤثرة؛ فقد كنت أسحب أنفاس الأرجيلة بهدوء، وبرود لا يليق بإنسان سوي.

تخيلت نفسي كقاضٍ فاسد، يصدر ببساطة أحكام الموت على المعتقلين وهو يدخن السيجار. شعرت أني حقيرٌ، بالضبط كضابط معقد، في معتقل يختطف المعارضين والسياسيين، في بلاد لا عدل فيها. منفرٌ ومزعجٌ جدًا أن تتذكر بشفافية طباعك السادية والسيئة بحق الآخرين.. أن تحاسب نفسك أسوأ من أن يترأف بك الآخرون.

مرت دقائق قليلة جدًا على ارسال اعتذاري المتملق لريم.. لم تتأخر بالرد، بل على العكس، جاء ردها بريئًا وعفويًا وخجولًا، فيه حروف العتاب بالكاد تظهر.

" أنا أيضًا آسفة. لا يحق أن أنعتك بأي صفة سيئة، قدرك كبير في داخلي. سأخبرك بكل شيء، وأفعل ما تنصحني به بالضبط".

لم أكن أدري كيف أتعامل مع هذه الرسالة. هل هي ساذجة لهذا الحد، أم هي طيبة بالشكل الذي لم يعد يصدقه أحد، في عالم يضج بالمنافقين والمرائين؟ كيف لهذه الطفلة البريئة أن تكون صديقة سارة اللعوبة؟!

من هذه الأسئلة انبثقت ثقتي بها، وزاد إعجابي بوقار قلبها، بعد أن عادت العلاقة لطبيعتها. كان ضميري يؤذيني بشكل كبير، فأحببت أن أبرر وجهة نظري أمامها، وطلبت منها أن تتواجد على الإنترنت، وسأضيفها مجددًا.

ثقتها العفوية، وقبولها الساحر أجبرني على التخلص من أي خبث في التعامل. شهد، لذكائها ومكرها الجذاب، الذي كنت أقع في شباكه دائمًا، أثر بشكل كبير في تعاملي مع الأنثى. ريم كانت مختلفة كليًا عن كل من عرفتهن من نساء.. كتومة لحزنها، وطيبة جدًا بشكل يعجز عقلي عن وصفه. كانت أطيب من كل النساء المظلومات اللاتي ذكرهن الأدباء في رواياتهم، وأرق من كل النساء اللاتي ظلمن أنفسهن بالحب..

لذلك، أخذت عهدًا على نفسي ألا أتلاعب بمشاعرها إطلاقًا، حتى ولو كانت غايتي نبيلة.

قمت بإبداء احترامي وأسفي لها بشكل صادق لا لوم فيه.. ولدت في ذاك اليوم من جديد. معظم البشر الذين تحجرت قلوبهم، كانت بسبب مواجهتهم لتجارب سيئة، وأناس ساقطين. نادرًا ما يحصل العكس، ويلين قلب أحد أمام الطيبين.

بررت بصدق لريم سبب تصرفاتي، وشرحت لها بحق غايتي في ذلك، وناقشتها في حقيقة مقتي للعلاقات الافتراضية، وتخوفي الشديد من سرعة ذبول إشراقتها، فهي في غالبيتها تمر بثلاث مراحل في وقت قصير؛ بداية من الشغف، ثم الملل، ثم النهاية. أوضحت سبب ذلك، ونجحت في إقناعها بأن محاولة تطبيق المشاعر والعواطف من خلال كتابات ورموز نصية هو أمرٌ في غاية السخافة، وأننا لو تغللنا في حوادث الفراق العصرية، لوجدنا أن معظم النهايات انتهت عبر مواقع وبرامج التواصل الاجتماعي. أنا بالفعل لا أدري كيف يقبل العشاق التخلي عن لغة الجسد ولغة العين! كيف يصدق الطرف الثاني أنك بالفعل خجول، إذا ما أرسلت له رمز للخجل، بينما قد

تكون في محادثة أخرى أرسلت للتو رمزًا يعكس حالة عصبية! كيف نقبل أن نصاب بهذا الداء القاتل؟ ثم سرعان ما ينتهي العشاق بالاستنتاج الساذج "الحب كذبة"! ليس الحب كذبة، بل أسلوب الحب هذه الأيام ساذج!

"آسف لم أر رسالتك"، "جوالي كان بعيدًا عني"، "هل أرسلت لي، لم أتلق أي رسالة منك"! هذا النوع من الكذب المتداول في العالم الافتراضي لا يمكنك تكذيبه. مجرد تكذيبه هو بداية فقدان ثقة، ومجرد البدء في استخدامه هو بداية النهاية الساذجة لأي علاقة، سواء حب أو صداقة.

سألتها بشكل واضح: ما متعة المحادثات المطولة التي لا تنتهي حتى ساعات الصباح؟ هل تستطيعين أن تكوني ذكرى حية من ألف محادثة؟

أجابتني باختصار ينم عن قناعتها بكلامي: لا

سألتها أيضًا بدون مقدمات: هل ستأتين إلى مصر؟

تأخرت بالرد كثيرًا، فخمنت أنها تفكر بالموضوع، لذا لم أعد السؤال عليها. عادت تتحدث بعد قليل، بلهجة يغلب عليها جدية كبيرة:

لقد خيرني والدي بين العمل أو الدراسة في الخارج، وأنا فضلت الدراسة، لأني أريد تنفس الحياة بعيدًا عن هذا السجن الذي عشت فيه طويلًا. وقد أعطاني مهلة أسبوع لأقرر أيهما سأختار، وأنا إذا ما أخبرت والدي عن رغبتي في الدراسة سيفضل أن أسافر إلى أوروبا.

لكن -لحسن الحظ- سارة متواجدة في مصر، ووالدي صديق لوالدها، تجمعهما بعض المشاريع الاستثمارية. سيكون وجودها في مصر حجتي لإقناعه بسفري ودراستي هناك.

صمتت لبرهة، ثم أكملت:

لن أكون مجرد كائن افتراضي في حياتك، ولن تكون أنت كذلك في حياتي. هذه ستكون آخر محادثة تجمعنا، إلى أن أفاتح والدي بموضوع السفر. فإن قبل سفري، سأحدثك عن موعد وجودي في مصر.. وإن رفض، لن تستطيع الوصول أو الاتصال بي مطلقًا.

ريم

كنت أتسحب بالنزول من على سياج السلم، فقد ارتوى قلبي راحة وثقة أشبعته لحدود الهذيان. وجهي كان يرسم ابتسامة تلقائية لا مجال لإخفائها. لم تكن لدي أسباب قوية للفرح في حياتي.. أبسط الأشياء تُسعدني، ربما ذلك لأني أحمي أوجاعي لنفسي، ولا أعرضها ولا أعرضها لهواء الآخرين، وهذا ما يجعل أتفه الأمور ترهقني، وأقل أسباب السعادة تُفرِج في قلبي حرية الفرح.

أختي كانت تجلس على الأريكة تقلب محطات التلفاز. لفت انتباهها شرودي، حيث صاغت ملامحها نظرة استفهام تسألني ماذا جد؟

أجبتها بشيء من الدلع "لا شيء". كانت غايتي من السؤال استفزاز فضولها لا أكثر، الأمر الذي سيجعل الحديث في الموضوع أكثر جدية.

أغلقت التلفاز، ثم ركضت باتجاهي وأمسكتني من يدي وقالت: "شكلك مسوية مصيبة، تعالي نطلع فوق وقولي لي".

سردت لها ما حصل بيني وبين آدم بالضبط. كان لوجود سارة في الموضوع فائدة تحميه من سخرية ورادة. لم أقل لها كل شيء مباشرة؛ كنت أسبر أرضها بأسئلة، ومن جوابها إما أن أستكمل كلامي، أو

أعدل عن الحديث عنه. ليلى كانت مبهوتة ومصعوقة من حديثي.. لم تكن تستوعب أن أختها المطلقة قادرة أن تخوض تجربة كهذه، وسط هذا الانقباض التربوي الذي يحط على صدورنا، ولم تكن تتخيل أن والدي من الممكن يومًا أن يمنحني فرصة الدراسة في الخارج. أنا شخصيًا لم يكن لدي تفسير واضح لذلك، ولم أشغل عقلي بهذه النقطة كثيرًا، ذلك أني أردت السفر بشدة.

وعندما حدثتها عن كل شيء وعن رغبتي بالسفر، اتهمتني بالجنون، وجادلتني في كل نقطة، وسألتني عن كل التفاصيل، وجلست لأكثر من ساعة تستعرض كل التخمينات السلبية والصعوبات التي قد تواجهني. شعرت من أسئلتها أنها لا تريد لي السفر. تقول ذلك عن طيب قلب، حيث كانت ما بين كل سؤال والآخر تعاتبني وتقول "ستتركينني للمرة الثانية"، "ماذا أفعل لوحدي مع غانم؟"، "أليس من الأفضل العمل عن الدراسة، بما أن هذا الخيار متاح لك؟".كان لسانها لا ينفك بالتعبير عن رغبتها في بقائي إلى جانبها، لكن الموضوع لم يقف عند هذا الحد، بل تجاوز وتغير مساره كليًا، عندما قلت لها بأنها سوف تتزوج في أي وقت، وسأكون أنا في هذه الحالة مجبرة على البقاء وحدي.

بعواطف بائسة، وبشكل مباشر فهمت منها سبب بعدها عني خلال الفترة الماضية، وسبب نظراتها الاستنكارية التي كانت تحاول إخفاءها عني. ردت قائلة بأنها قد لا تتزوج أبدًا بسبب طلاقي، فمن ذا يتزوج من امرأة أختها الكبرى طلقت بعد أقل من شهر على زواجها؟

كان كلامها صادمًا وموجعًا، هتك أملي. ماذا عساي أقول لها؟ ما أفعل كي أداوي غيظها مني؟ عندما يأتيك العتاب من أقرب الناس إليك، على شيء لم تقترفه أو لم تكن مسؤولًا عنه، تشعر بالخوف والرعب، فيكون عقلك في كامل وعيه، لكن لا تستطيع التفكير، ولسانك في كامل بلاغته، لكن لا تستطيع الحديث.

شعرت بغثيان شديد، ولم أتمالك نفسي الخانقة، وبغير قصد ولا إرادة وجدت نفسي أنجرف في البكاء بشكل هستيري، من شدة العذاب الذي حل فجأة على كبدي.. كنت أرى ما حولي، لكن لا أسمع إلا صوت نحيبي.

آدم

مر أكثر من أسبوع، وأنا لا أعرف عن ريم شيئًا. في هذه الفترة، كنت أخرج كثيرًا، كي لا أفكر بها ولا بفكرة قدومها. وكانت علاقتي بسارة تتحول شيئًا لشيء لمفهوم ثابت؛ مجرد صداقة، لا تزيد في سقفها عن ذلك أبدًا. صارت بالنسبة لي امرأة متحررة، أحب جدًا معارضتها، وهي تحب أن (تجاكرني) بالحديث وتعارضني على أي شيء، وهذا بحد ذاته كان يخلق متعة بالنسبة لي.

"لي ياني" كانت دائمًا تفصل بيننا كلما زادت حدتنا في الحوار، إما بمزحة أو بطرح رأيها بعقلانية. كان تحجيم علاقتي بسارة بشكل معين يدفعني لأن أفكر بريم بشكل أكثر، وبصورة في قلبي أكبر.

أنا مقتنع بشخصية ريم، وكلامها الأخاذ الممزوج بالخجل يسحرني. أحب المواضيع التي تتحدث بها، ويسعدني تشابه الاهتمامات بيننا.. أحب جمالها البدوي، ونضارة ملامحها التي لم تستطع هالة الحزن -على شدتها- أن تخفيها.. أحب عينيها اللوزيتين اللتين يرتكز عليهما محور جمالها. أريد أن أراها على طبيعتها، وأرى كيف تغمض عينيها، وكيف يحط الرمش على الرمش.. هل سيكون -مثلا- مثلما يحط الحمام بجناحين على غصن شجرة؟

أصبت هذه الفترة بمتلازمة تصفح الرسائل. كان أكثر ما يعذبني الرسائل الدعائية، التي تصل من شركات الاتصالات. في كل مرة

أسمع رنة الرسائل، أركض وقلبي يركض قبلي، وأصطدم حين تكون الرسالة دعائية، فأشعر بخيبة كالخيبات الكبرى. ولسوء حظي، كانت عدد الرسائل التي تصل يوميًا مذهلًا، مقارنة بالأيام العادية، حتى كادت تسبب لي حالة من العذاب النفسي، الذي دفعني حقًا لأن أدمن التفكير بهذه المرأة.

خارت عزائمي عندما تذكرت أنها مطلقة. هل يعقل أن أغامر بالدخول في علاقة مع مطلقة؟ كيف سينظر لي أصدقائي وأهلي؟ هل سيعايرني بذلك أحد؟..

أوجعتني كثرة الأسئلة على هذه الشاكلة. ولسوء أفكاري -كرجل شرقي لم يتخلص من نزعة السيد والتملك- فكرت بفجاجة بأن أصاحبها وأتسكع معها، دون أن آخذ أي علاقة معها على محمل الجد؟

ما أقذرني! كيف أفكر بذلك وأنا أدعي أني شخص متحرر؟! كيف أفكر هكذا، وأتبنى في فكري الدفاع عن حرية المرأة؟! كيف أفصّل وأقسّم وأوزّع مشاعر هذه المرأة، كمن اكتنز لقطة مالية من على الرصيف؟! كيف أكون استغلاليا، انتهازيا، حقيرًا بهذا الشكل؟!

أذكر، في اليوم الذي راودتني هذه الفكرة، أني تعثرت بصورة منشورة على الفيس بوك، كان مخطوطا بها كلمات للدكتورة نوال السعداوي تقول فيها:

"يتشدقون بالدفاع عن النساء المقهورات، يكتبون عن حق المرأة، يتنافسون على إقامة علاقات مع المرأة المستقلة الحرة.. شرط ألا تكون زوجة لأحدهم"

جلست مرتعدًا أنظر حولي حين قرأتها.. شعرت ببعض التشنجات الفكرية في عقلي. ومن شدة احتقاري لنفسي، كنت أشعر بأني أرتجف بردًا في فصل الصيف، في مدينة صحراوية مشهود لها بشدة حرارة طقسها.

عرتني هذه الكلمات عن شخصيتي المنافقة. سألت نفسي: لو كانت هذه المرأة المطلقة أوربية، هل سيشكل ماضيها فرقًا بالنسبة لي؟.. الجواب كان واضحًا!

لماذا يشكل ماضي المرأة العربية خصمًا ضد أي علاقة قد تنشأ، ولماذا ماضي الرجل لا يشكل أي فرق؟! كم إن حالتي الثقافية والفكرية مزرية! قصم هذا الموقف ظهري، ووضعني على المحك.. إما أن أكون رجلًا كما يرى عقلي مفهوم الرجولة، وإما أن أكون رجلًا على طريقة المجتمع الذي شوه مفهوم الرجولة.

أردت رتق هذا الفتق الفكري، الذي يفضح ازدواجيتي، بمداواة سقمه. وضعت نفسي أمام الورقة والقلم، وبدأت أجلد نفسي وأناظر زيفها بأقسى الأفكار. ظللت طوال الليل وحتى ساعات الصباح أهجو نفسي وأعاقبها، حتى قومتها. لم أكن لأستطيع تقويمها، لولا اعترافي بتخلفها وتفاهتها وحمقها..

لا أدري كيف تكاثرت الصدف كعنقود العنب. في اللحظة التي عدلت فيها اعوجاج فكري، وصلتني رسالة من ريم تقول فيها:

"آدم، آدم، آدم،

أنا حجزت تيكيت الطيارة لمصر، رحلتي بعد بكرة. ما راح أكلمك إلا وجهًا لوجه، لما أن أصل مصر"

كانت رسالتها ذات نكهة مشمشية، محفورة على أورق ذات شكل قلبي، تحيط الصدف بأطرافه المدببة. كنت حينذاك أستمع لمقطوعة من موسيقي الجاز تسمى "Jordu"، لعازف البوق الشهير "كليفورد براون" وعازف الإيقاع والملحن الأمريكي "ماكسيول روتش". أنا من عشاق الموسيقى التي تستخدم فيها آلات النفخ كالبوق والساكس فون، فهذا النوع من الموسيقي يبعث في قلبي الفرح؛ لذلك، بمجرد ما قرأت الرسالة، وقفت أرقص كالمجانين، وأضع الخنصر فوق البنصر وأنفخ بهما، كأني عازف متمرس على الترومبون.

لأول مرة أتصرف بجنون هكذا، على عكس طبيعتي وشخصيتي التي يغلب عليها طابع الكياسة والهدوء، لكن إشارات القدر، التي كانت تصب كلها في صالح علاقتي مع ريم، تجعلني أشعر بالبشاشة والتفاؤل، وتصفي أفكاري وأخلاقي، لتصير أكثر وقارًا واحترامًا.

بدأت أشباح خيالاتي ترسم توقعات للقاء الأول.. كيف ستكون شخصيتها في الواقع؟ أهي خفيفة الظل؟ أو غليظة الحضور؟ هل ضحكتها جميلة، أم قليلة الحظ؟ ثم هل هي أنيقة حقًا، أو فقط خلال الصور؟ هل لديها عطر مميز؟ هل هي أطول مني أم أقصر؟ كل هذه الأشياء لا تنجح عملية تبادل الصور في فضحها. لو أني في قبضتي آلة الزمن، لسرعت أداءها قليلًا.. لو أن في يدي مطارًا، لعدلت جدول رحلتها كي تخرج الآن..

تمالكت ملامحي بضراوة، لأتجنب أي سؤال قد يعرضه أصدقائي الذين يقيمون معي في الشقة، فأنا حقًا لا أحب الخوض في مثل هذا الأمور بشكل مباشر. قد أكتب عنها نعم، لكن لا أقولها لأحد، وذلك أني أجعل الحقيقة في الكتابة تحتمل التأويل، ولا أكشفها بالمطلق، وكأني أخلط سكر الواقع بشاي الخيال. أريد لحياتي بداية نقية، تمر من كفة الحابل، وتترك الماضي بأوجاعه فوق المصفاة.. أريد حياة كالحياة وحسب.. أساسها مستقر، وجمالها صافٍ كعيون الريم.. أريد أن أعيش حياتي التي لم أعشها بعد.. أريد أن أتوه في خمائل الحب وأبني بيتًا صغيرة في خميلة!

تأنقت، ولم أتعد حدود بساطتي؛ لكنني أسرفت في نثر عطري الخاص على ملابسي وباطن كفي.. لا لشيء، ولكن لأربط هذا اليوم بكل الحواس الذاكرة. لم أكن مضطرة لأن أبوح لسارة بشيء، فذكاؤها كفاها لتفهم كل شيء. ومن الطبائع الأوروبية التي أثرت بها بشكل واضح، عدم تدخلها في حياتي الشخصية، بل بعفوية تشجعني على التجربة، ولا تكف عن تذكيري أني خلقت حرة.

إن وجودي مع سارة لهو شيء مشجع لأي تمرد قد أخطو به. فالتمرد لا يحدث إلا نتيجة دلال كبير، وكبرياء يصل لمستوى الغرور، وهذا ما كانت ينطبق كليًا على سارة.. أو نتيجة كبت وظلم وقهر شديد، وهذا ما هو حالي بالضبط.

كنت متعبة جدًا من السفر. وصلت رحلتي الساعة 11 صباحًا، والطريق من المطار إلى مدينة 6 أكتوبر في هذا الوقت كان مزدحمًا جدًا، كما أن اليوم الذي سبق سفري، بذلت فيه جهدٍ مضن لترتيب حاجتي وشراء مستلزمات رحلتي.

افترضت أن اللون الأزرق هو المفضل لدى آدم، من لون مدونته التركوازية، ومن خلال إدمانه للأغاني والموسيقي الرحبانية، التي كتب عنها يومًا في مدونته. أخذت العادة أن معظم عشاق فيروز هم عشاق

اللون الأزرق.. ذلك واضحٌ من عشق الرحابنة للأزرق، الذي انعكس على كلمات أغانيهم، "وطني يا جبل الغيم الأزرق"، " سهرنا يا ليل الأزرق"، "عالمقعد الأزرق على قمر السكران"، "من حقلة الزنبق نقت قمر أزرق"، والكثير من الأغاني التي كتبها الأخوان الرحباني ذُكر فيها اللون الأزرق، حتى أن الاسم الفني للسيدة فيروز يحمل في كينونته إحدى درجات اللون الأزرق. هذا بالإضافة لتعليق مدح للون الأزرق لآدم، عن رواية الضوء الأزرق للكاتب الفلسطيني حسين البرغوثي، فالأزرق مرتبط بالمبدعين كارتباط الظلم بقضية فلسطين.

في الفترة التي انقطع الكلام بها مع آدم، كنت أحاول تكوين صورة عن اهتماماته وصفاته، والأشياء التي يحبها. من هذا المنطلق أردت أن يكون لقائي الأول معه.. فكان أن قررت أن يصبح محفوفًا بالأزرق الذي يحبه، فأنا أعشق الاعتناء بالتفاصيل عناية النحات بتمثال أمه.

ارتديت بلوزة جينز مخططة بالأزرق والأبيض، مع بنطلون جينز.. كانت المرة الأولى في حياتي التي أخرج فيها بغير عباءة سوداء. كنت مع سارة وصديقتها "لي ياني" اللاتفية، توجهنا للقاء آدم في المقهى الذي اعتادوا الذهاب إليه، وأنا أرتب اليوم في ذهني كما لو أني أنسق باقة زهور، أحاول ألا تعارض روح آدم اللا ملموسة حقيقته على الواقع، حتى إني قد تعبت من تخيل شخصيته، ومن استنتاج عمقه، كي أشعر بأني أعرفه منذ أعوام.

بدا أنهم يأتون باستمرار لهذا المقهى. فبمجرد دخولي مع سارة و"لي ياني"، هلت الترحيبات، وكأنهما في زيارة لبيت إحدى صديقاتهما. لم أدر ماذا أفعل، فصمتُّ يعتريني الخجل. كنت مبهورة بسارة جدًا، فخلال خمس دقائق طالت، من باب المقهى للطاولة التي يجلس عليها آدم، سلمت سارة تقريبًا على كل الرجال في المطعم. كانت تصحبني من يدي، وتعرفني عليهم واحدًا تلو الآخر، وكنت غاية في الارتباك، فلم يسبق لي الالتحام بموقفٍ كهذا.

قال أحد العاملين في المقهى موجهًا كلامه لي: "إنتي حبيبة آدم، إللي جايبلك الورد معاه، صح كدا؟"

يا الله! ماذا فعل هذا المجنون؟ كيف يقول ذلك؟ لقد وضعني بين غمار السحاب، وتركني أواجه عيون سارة.. أضرم النار وهرب!

كان هذا الموقف كثيرًا جدًا بالنسبة لي، أفقدني توازني وتركيزي.. لاحظت سارة أن خجلي اعتلى لمرحلة الرعب، فحاولت أن تنجدني موجهةً كلامها إليه: "مايبقاش اللي في قلبك على لسانك دايمًا، إنت ممكن تودي الناس في داهية من ورا كلامك ده".

كان واضحا جدًا أن سارة اندمجت مع الحياة في مصر بسرعة. أضحكتني حين تكلمت باللهجة المصرية، فأنا معتاد على لهجتها المركبة من الإنجليزية والعربية. حتى لو تكلمت بلهجتنا، لكان ذلك مضحكًا أيضًا.

جُملة ذاك العامل كانت المفتاح، الذي وضعني بصورة إجبارية في علاقة مع آدم أمام الناس، على رغم أني لم أنبس -لا أنا ولا هو- بأي كلمة تضع سوارًا لحدود علاقتنا.

ركضت "لي يانغ" لتسلم على آدم وتقبله. كانت تمامسه بشيء ما، وهو يعلق نظره تجاهي، فأردت الهروب من عينيها ونظرت للأسفل.

شهقت لا إراديًا، بطريقة أثارت انتباه الجميع.. ولو كنت بوعي في ذلك الوقت، لجعلت حتى أنفاسي في وضعٍ صامت.. لقد أدهشني ما رأيت.. أدهشني حقًا..

أدهشتني يا آدم..!

آدم

التفاصيل الصغيرة.. التفاصيل الصغيرة..

تحب النساء الرجل الذي يعتني بالتفاصيل الصغيرة. لا بد من لفت انتباه ريم باهتمامي بالتفاصيل، بل بأدق التفاصيل. هكذا ظللت أردد لنفسي بصوت نفسي الساكنة هذه الملاحظة. ولأن اللقاء الأول هو الأكثر خلودًا على معارض الذاكرة، كان لا بد من إتقان الاهتمام بتفاصيله على أعلى مستوى.

أول ما خطر على بالي، كانت زهرة الأوركيد، التي عرفت من خلالها الوصول لريم. لم أتردد في الذهاب لمحل الورود في مول العرب، والذي لا يبعد كثيرًا عن بيتي. كنت متخوفًا جدًا ألا أجد هذا النوع من ، لكني حمدت الله حين وجدته متوفرًا لدى المحل الذي يقع في منتصف أحد ممرات المول الكبير.

لم أقتنع بجمال الورد وحده، كنت أريد شيئًا أكثر عبقرية واختلافًا. تذكرت أني أحضرت معي من غزة مرطبان، وضعت فيه قليلا من رمال البحر وبعضا من أصدافه وصخوره.

هذه الأشياء البسيطة التي أقتنيها تعني لي الكثير، ولا أدري كيف خطرت على بالي حين اشتريت أزهار الأوركيد. رجعت إلى البيت وأخذته، مع بعض الأدوات التي سأحتاجها، وغايتي في ذلك تنسيق الزهور باستخدامهما على طريقة "إيكيبانا" اليابانية، التي تهتم بالبنية

الشكلية لنسق الزهور أكثر من كمية الزهور وألوانها. هي طريقة تنسيق تعتبر أحد الفنون اليابانية التراثية، التي ترجع للقرن السادس للميلاد.

أخذت أكبر الصدفات البحرية التي عندي، والتي كانت بحجم كف اليد، وثبتها على قاعدة خشبية، ثم ألصقت أغصان الزيتون فيها وحولها، على الطريقة الحرة (موري–بانا)، ثم وضعت بعض الصخور الصدفية الصغيرة حول الأغصان، كي تبدو وكأن الصخور تربتها. ذكرني ذلك بمطلع قصيدة "أجمل حب" لمحمود درويش : "كما ينبت العشب بين مفاصل صخرة... وجدنا غريبين يوما". وضعت الأوركيد عليها وهي تدير وجهها للسماء، وعندما انتهيت شعرت بالفخر وأنا أنظر إليها. لماذا لم يخطر على بالي فعل ذلك من قبل؟ الصخور عندي، وأغصان الزيتون كذلك، والأزهار متوفرة حولي، وكل شيء في متناول يدي. لكن وراء الفكرة الجميلة امرأة رقيقة غزت حياة رجل بقلب أنثى!

نظرت صوب عينيها لخمس ثوان، قبل أن تحول بصرها عني. كانت تلك إشارة واضحة للتجاذب والقبول الذي حل من اللحظة الأولى. وعندما أحالت بصرها على الطاولة، شهقت بشكل اقشعر به بدني، وأصابني بالجمود.

لم أكن أتخيل أن الورد يعني لها كل هذا.. لقد أعجبتها الباقة جدًا. ولولا ابتسامتها التي تبعت دهشتها، لأصابت جهازي العصبي في مقتله.

كانت الابتسامة بمثابة الضوء الأخضر، الذي دفعني للكلام، كي لا يخرج شيئًا عن السيطرة. قلت، وأنا أحرك يديّ بشكل كبير لأخفي خجلي وأحكمه بقبضة من حديد:

"بعيدًا عن الترحيب والحمد لله على السلامة، ها الهدية خلاصة دراستي لشخصيتك الأيام التي راحت!"

لو كنت بكامل وعيي في ذلك اليوم، لقلت شيئًا أكثر عمقًا، وأكثر قدرة على إثارة انتباهها. إنني –لهذا اليوم– ما زلت أصنع سيناريوهات أخرى لذاك الحدث في أحلامي.. أنا صانع أحلام محترف.

لا أدري الحكمة في سخافة أول مرة يتحدث بها المرء مع الشخص الذي يتودد إليه، فلم أستطع منع نفسي من أن أقول ما كان استهلاكيًا جدًا:

"انت أحلى من الصورة بكتير.."

لا أفهم لماذا اعترتني البساطة والعفوية بالحديث ذاك اليوم؛ خصوصًا وأنا أعشق التحدث بالتلميح لا بما يصل لدرجة التصريح. وكانت ريم تبتسم ببلاهة مضحكة أيضا.

بعدما أشرت لموضوع الصورة، أطلقت سارة ملاحظتها:

"الظاهر أنه علاقتكم متطورة أكثر مما تخيل ذكائي"

أثارت حدتي بتعليقها، فرددت عليها بطريقة زياد الرحباني:

" أنا بعاشرك مية سنة يا بنتي.. باخدك وبجيبك وبوديك ولا بخليك تعرفي شي عني..لأنه ما بيخصك.."

رغم أننا اعتدنا تبادل الردود القاسية، أنا وسارة، إلا أني شعرت أني أزعجتها بردي جدًا، لذا تابعت حديثي موجهًا كلامي لريم : "ما تنصدمي من طريقة كلامنا، احنا دايمًا هيك زي ناقر ونقير".

استلمت "لي يابي" زمام الحوار، وصارت تحاور ريم وريم تجيبها بنهم تداري به إرهاقها وخجلها، بينما أنا أدرس كل إيماءة تتحرك بها، وكل نظرة تسترقها كنت أقبض عليها.

نعم، وقعت صريعًا في حب هذه الريم.. غدا قلبي محتلًا منذ لحظتي الأولى معها، فاحتلت عقلي وانتشر حضورها في خمائله، كانتشار وباء في سرعته، وتأثير النسيم في خفته. لا أذكر شيئا من حديثها مع البنات.. لا أذكر سوى قسمات وجهها وهي تتحدث.. ضحكة خدها وهي تمتعض حين تخجل.. غمضة عينيها وهي تهرب.

فجأة، قاطعت حديثهن، واستفسرت من سارة عما إذا كانت قد اشترت لريم شريحة محمول مصرية، فأجابت بالإيجاب. فطلبت من ريم الرقم. ارتبكت حينها، حيث لم تكن تحفظه، فطلبت منها هاتفها المحمول، وأنا أجاهد لإخفاء تشوقي بحيائها، واتصلت برقمي وسجلت رقمها، الذي ظهر لدي –ببرنامج إظهار المتصل– باسم "عمري القادم".

أخذنا الحديث بموضوع آخر بعد ذلك. كان يبدو واضحًا جدًا التعب على ريم؛ أردت أن أطلب من سارة أن تأخذها لترتاح، لكن لم أستطع خوفًا من أن يساء فهمي، فقد يتبادر لذهنها أني أريد الهروب.

بتلقائية، وجدت نفسي أكتب على الهاتف المحمول رسالة نصية لريم، التي تجلس معي على الطاولة، كتبت فيها "الأزرق يليق بك". أنا معتاد على استخدام الجمل الشعرية والأدبية التي تعجبني في سياق حديثي، فأنا لا أستمتع فقط بقراءتها بل أيضًا بممارستها في حياتي. دائمًا ما أقتبس شيئًا من شاعرٍ أو أديب، وأعدل عليه كلمة أو أكثر بما يناسب الموقف، مع أني لا أجد الكثير من الناس حولي من يفهم اسقاطاتي.. إلا أن ريم لم تخيب ظني أبدًا.

حين رن هاتف ريم بوصول الرسالة، قالت لها سارة: "إنتي لحقتي تعطين رقمك لحد؟"، فسارعت بالإجابة بدلًا من ريم : "ممكن تكون رسالة دعائية من شركة الهاتف المحمول، راح تلاقيهم بفتقدوكي أكثر من أهلك".

يبدو أن ريم فهمت من تدخلي من الحوار أني مرسل هذه الرسالة، فحين فتحت الرسالة قالت: "رسالة دعائية".

ثم حولت رأسها إلى أسفل ونظرها إلى أعلى.. كانت تخفي ابتسامتها، التي أطبقت بها شفتيها، كأنها تخفي سرًا ما.. كانت تلك أجمل ابتسامة رسمتها ريم على شفتيها، أسرت قلبي وعقلي وكلي.. تلك الابتسامة جعلتني على يقين بأني وقعت في حبها. لم أتمالك نفسي، وأمسكت الهاتف مرة ثانية، وكتبت رسالة أخرى: "أعلنت الحب عليك"..

ريم

لم أتمالك نفسي أبدًا من جرف المشاعر التي راودتني من رسائل آدم. أردت أن أجاري طريقته في الغزل.. كيف يفعل ذلك؟ كيف يختار بعناية الكلام الذي أحبه، للأدباء الذين أحبهم؟ كنت مستسلمة بالكامل لما يريد؛ لو طلب مني آدم في ذلك الوقت أن أطير، لاخترعت جناحين وزرعتهما في كتفي وحلقت كالحمام فوق رأسه.

كنت مرهقة، بالكاد أحرك رأسي بالموافقة على ما تقوله سارة وصديقتها. ذهني يعمل بنصف طاقته، وهذا النصف كله بين يدي آدم. لم أستطع أن أتذكر كثيرًا مما أحفظ، لأجيبه بنفس الطريقة التي يصوغ بها رسائله، لكني – بجهد مضنٍ– تذكرت أبيات شعر لغادة السمان، أردت كتابتها لأوافق بها حبه. استأذنت من سارة دقيقة، بأني سأرسل رقمي لأهلي، وكتبت:

"مفتوحة العينين حتى أقصى مداهما

إني (واقفة) في الحب

لا (واقعة) في الحب

أريدك

بكامل وعيي

(أو بما تبقى منه بعد أن عرفتك!)"

كان مذاق تفكيري بنكهة الفراولة.. أكتب، وأسرح، وفي كل لحظة احساسي يترقق. كيف لكف قلبي أن يحمل حُبا بهذا الشكل؟ كلانا يريد أن يختار من الحب أجمله، ومن السعادة أقصاها، فكيف لقلبي أن يحتمل هذا؟

اشتد أزيز التعب، وجسمي لم يعد يحتمل القدرة على البقاء أكثر. لقد بذلت مجهودًا كبيرًا قبل السفر بيوم، بالإضافة لإرهاق السفر الذي لم يمنعني من لقاء آدم.

كنت على مشارف دوار لا مفر من خوض غماره، فاستأذنت من الجميع للذهاب إلى الحمام، كي أنقذ وعيي برشقة ماء.. لكني تصرفت بشيء من السذاجة، فقد حملت الأوركيد معي!

الكل نظر إلى وجهي بقوة، وعلامات الاستفهام والغرابة تتفجر من عيونهم. حين أتذكر ذلك الموقف أقول في نفسي: ما أغربني؟ كيف فعلت ذلك!

بينما أنا متجمدة من نظراتهم، قال آدم: الورد في يديك لا يموت، بل يتآلف على الحياة من جديد!

كنت في الهزيع الأخير من الصمود واقفة.. وضعت الورد على الطاولة، وهربت فورًا على الحمام. وقفت أمام المرآة أنظر لنفسي، أحاول أن أرسم فرحة على وجهي تعكس فرحة قلبي، لكن التعب كان ديكتاتوريًا جدًا، وأحكم قبضته على سلطتي. بدت لي المرآة

وكأنها تتحرك.. تذكرت ليلى أختي وكلامها، الذي شق لأول حاجز في الحياة بيننا. لقد تركتها وأنا غاضبة منها، لأحب وأنعم بالحياة، وأتركها فريسة الوحدة وسوء الظن. شعرت كم أنانية أنا. أريد أن أصالحها، لكن كيف؟ ما قالته كسر في نفسي الكثير.

لا أدري لماذا كلما وصلت لقمة الفرح، يهاجمني بغتة سوء الفكر! هل لتوازن الكون علاقة بذلك؟!

يا عمري، يا أختي، كان يجب ألا أسافر. أنا هنا ألهو بالحب، وأنت تتوجعين في حياة أشبه بالسجن. أنا أحمل المستقبل، وأنت تحملين المجهول.. على من ألوم في ذلك، على نفسي؟ أخي؟ أمي؟ نبيل؟.. على من ألوم؟

أريد أن أعرف الجاني لأجلده، فعقابه تضخم في نفسي.. ثم أعود لأسأل نفسي، هل أنا قوية لدرجة أن أعاقب أحدًا؟!

لا أطيق احتمال ما أفكر به.. أشعر بأن عقلي يتفكك، وقلبي يتفتت.. ماذا أفعل؟ هل أعود وأخسر نفسي وآدم وأكسب أختي؟ هل هناك حل وسطي؟..

الكثير من الأسئلة كانت تجلدني، فلم تقو قدماي على حملي.. بدأت أشعر بالغثيان و الدوار، فقد فقدت كليًا طاقتي. حاولت أن أدير وجهي، أبحث عن كرسي أجلس عليه، لكن الوقت لم يسعفني. آخر ما أذكره أني رأيت وجه أختي يبتسم، ثم سقطت على الأرض فاقدةً الوعي.

آدم

خرجت سارة تصرخ من الحمام، حين ذهبت لتفقد ريم التي تأخرت كثيرًا هناك لحد القلق. كانت تفترش الأرض، ويسيل الدم من رأسها إثر سقوطها وارتطام رأسها بأرضية الحمام. تشنج عقلي، ولم أعرف كيف أتصرف. لأول مرة في حياتيَ أتعرض لموقف كهذا.. كنت أقرب لمومياء محنطة، لا يمكنني الحراك. أفقت على صراخ "لي ياني" تطلب مني أن أحضر سيارة بسرعة لنقل ريم للمستشفى.

هرولت بسرعة إلى الخارج، وأحضرت السيارة إلى الباب، ودخلت لأبلغ "لي ياني" بذلك. كانت مع سارة تحاولا بصعوبة حمل ريم على أكتافهما، ومن في المقهى ينظرون إليهم، ولا أحد في المكان يعلم كيف يمكن التصرف في مثل هذه الحالات، كأن التخلف مصيبة أصابت كل من في المقهى. هل خفت من القيام بحملها عنهن، فيعترض أحد على ذلك كونها بنت وأنا رجل، لا تربطني بها صلة دم؟ هذا التفكير السخيف هو أول ما راودني؛ لكن قوة كبيرة دفعتني لأن أحملها حتى غرفة الطوارئ في مستشفى الجامعة، والتي كان صديقي يداوم فيها ذلك اليوم هناك.

أعصابي تلفت كليًا، فكدت أحتضر وأنا أحمل ريم بين يدي. أرجف بشدة.. ضربات قلبي أسرع من الخيل في سباق الفروسية،

كنت أشعر بريم وهي بين يدي كطفلة أصيبت إثر قصف إسرائيلي لأرجوحة أطفال بينما تنتظر دورها للعب. لا أدري إذا كان الحظ سيعرف طريقي أم أنه تملّ كما طوال العمر. كنت مرتعبًا، وعلى وجهي تضخمت ملامح الخيبة وقلة الحيلة.. أ كلما أحببت امرأة تسببت لها بمصيبة؟! كنت موقن في هذه اللحظة أن الحياة تكرهني إلى الحد الذي يتجاوز الخطوط الحمراء.. كيف يطلب الأمل منيّ الصمود وأنا أترنح آيلًا للسقوط؟

وقفت مع سارة وزميلي في السكن –الدكتور محمد– الذي يدرس طب بشري في نفس جامعتي، لنعطي معلومات عن ريم لموظفة الاستقبال. أشعر بجوفي ساخنًا، جدرانه ملتهبة حارة أقرب للانفجار. كانت الممرضات في غرفة الطوارئ يركّبن المحاليل لريم، ثم جاءت إلينا ممرضة وسألتنا إذا ما كان هناك أحد من أهلها موجودًا، فأجبنا بالنفي. وجهت لنا بعض الأسئلة، عما إذ كانت قد تعرضت لحالة إغماء مشابهة، أو كان لديها أي أعراض مرضية مسبقة، لكن لم يكن لدينا الكثير من المعلومات، سوى كونها مطلقة، وأنها مرهقة جدًا بسبب رحلة سفرها والمجهود الكبير الذي بذلته خلال اليومين الماضيين. مرت ساعات، ولم تستيقظ ريم من غيبوبتها. لم نقم بتبليغ أسرتها بما حدث، فقد ظننا أنه مجرد إرهاق بدني بسبب المجهود الكبير الذي بذلته.

كان قلبي قبل ذلك اليوم بالونًا مفرغًا من الهواء، بقدوم ريم بدأ يمتلئ شيئًا فشيئا، إلى أن أصبح ممتلئًا بها، يطير فرحًا بنظرة عينيها.. نعم أحببتها بعمق، ولم يكن هذا الشعور ليخضع للشك.

زادت فحمة الليل، ومر الهزيع الأول والثاني منه، حتى شارف الصباح على الانبلاج، وريم لم تستفق بعد. كل شيء حولي كان فاترًا

قاتمًا.. يملؤني كرهي لسوء حظي، وأشفق على المرأة التي أقحمتها في حياتيَ المشؤومة وجلبت لها الشؤم.

كنت أجلس في المستشفى صامتًا مع سارة، بعدما استأذنت "لي ياني" وعادت للبيت، بسبب عملها الذي تستيقظ له مبكرًا. لم أتكلم مع سارة أبدًا، حتى لا يتبادر في ذهنها إبلاغ أهل ريم بما حدث، الأمر الذي سيجعلهم في غالب الظن يعيدونها للعلاج لديهم، إذا ما كان أمر غيبوبتها جللًا.

كل دقيقة كانت تمر، كان توتري يزيد فيها مثقال جبل.. لم أعد أتمالك أعصابي أكثر، فاتصلت بصديقي وأخبرته أنها لم تستعد الوعي حتى الآن، فرد ببرود قاتل استفزني جدًا، ودفعني إلى نعته بأفظع الشتائم والمسبات، ومن ثم أقفلت خط الهاتف في وجهه.

عدت أجلس في قاعة الانتظار، وقد أصابني وجوم شديد. كانت الممرضة تطلب منا الذهاب الآن والعودة في الصباح، لكننا أصررنا على البقاء.

كل الأشياء حولي كانت رمادية.. بخفة الرماد وبؤسه أمام رياح القحط. وكانت رؤيتي تشح أكثر فأكثر مع شدة النعاس والتعب. كم تورطت في حب هذه المرأة.. من أول مرة طرقت سيرتها طبلتي أذني. ريم، يا نطفة القلب، يا حلم العمر، استيقظي من اللاوعي واعطني انتباهك.. أريد أن أقول أحبك، حتى تهترئ الألف وتشيخ الكاف.. أحبك يا عقيدة الإنسانية وحمامة السلام.. إنني أسمع نبضي يهرول مني إليك، يريد على جدران قلبك أن ينام. يا دربي الحائر،

هل أنا أنت أو أنت أنا؟.. أو أنا وأنت لا شيء لنا؟.. يا حظي العاثر، ألا يكفيك إجرامًا؟

كانت مناجاة النفس في هذه اللحظات الحرجة أشبه بالخضوع لعملية جراحية دون تخدير، تتحدى وجعي والوجع يقسو على نفسي أكثر. وأخيرًا دخل صديقي محمد صالة الانتظار حيث أجلس. كان يتنفس لاهثا، بدا أنه جاء ركضًا من البيت إلى المستشفى، بعدما أغلقت الهاتف في وجهه. أخبرني بأنه كلم أستذته من الأطباء الذين يحاضرونه في كليته، وقد أخبروه أنهم طلبوا من الممرضين أن يتم نقلها لغرفة العناية المركزة، وهو الآن متوجه إلى هناك.

لحقت به أنا وسارة، التي كانت هي الأخرى متعبة جدًا وعلى مشارف إغماءة. ظللنا ننتظر أمام الباب، إلى أن خرج صديقي محمد، وأخبرني بأنهم يحاولون جادين لإعادتها للوعي، بعدما لاحظت الممرضات أنها تعاني من تعرق ليلي غير طبيعي. قال إنها الآن بخير، وستستعيد وعيها تدريجيًا، ولكن ستظل تحت المراقبة حتى تتحسن صحتها.

كان من الجيد أن قال ذلك أمام سارة، فساعدني على إقناعها بالعودة للبيت لكي تستريح قليلًا. أكدت عليها أن لا تخبر أحدًا من أهلها، فربما يمر الأمر بسلام، ولا تكون هناك حاجة لإثارة قلقهم وربما...

لم أكمل؛ لكنها كانت ترمقني بعينين يختلط فيهما الفهم بالإرهاق. انصرفت، وأنا لا أدري كيف ستصل للبيت بحالتها هذه، لكن لم يكن

بمقدرتي أن أرافقها وأترك ريم هنا. طلبت منها أن تطمئنني بوصولها، وإن توقعت أنها ستنهار بالنعاس بمجرد وصولها لحافة الفراش، وتنسى أن تفعل أي شيء عدا النوم.

بعد ساعة أخرى، خرج الطبيب المسؤول وطمأنني على ريم؛ لكنه أبدى شكه أن تكون المسألة أكبر من مجرد حالة إغماء من التعب، وأخبرني بأنه طلب من الممرضات إجراء فحص دم كامل، خلاياه وأملاحه وإنزيماته، ليساعده في تشخيص الأمر أكثر، على أن نحصل على النتيجة بعد حوالي نصف الساعة.

أخذني محمد إلى المعمل لنعرف نتيجة التحليل. دخلنا لمكتب الدكتور، ذي الملامح الباردة أو ربما المتشائمة أو أنها غير مفهومة؛ لا أدري كيف يجدر وصف تلك الملامح الساكنة التي لا تبوح ولا تطمئن. وأخيرا، مرت الثواني تجلدني، ليخبرنا الطبيب الذي كرهته أن لدى ريم ارتفاعًا حادًا في كريات الدم البيضاء وانخفاضًا حادًا في الصفائح الدموية وفي نسبة الهيموجلوبين وفي كريات الدم الحمراء. أردف قائلًا إنه قد طلب من المختبر صورة شريحة ميكروسكوبية لعينة دمها، لفحصها مجهريا، وبناء على ذلك إما ستتلاشى شكوكه أو يتأكد منها. قال إن الأمر سيستغرق من 5 إلى 6 ساعات، قبل أن نعرف النتيجة.

عدنا إلى قسم العناية المركزة، فألححت بسؤال الطبيب أن يمكننا من الدخول لنطمئن عليها، فكان رفيقا بي، واتصل بإحدى الممرضات آذنًا لنا بالدخول للاطمئنان عن ريم لدقائق، فاستأذن محمد للذهاب

قائلا بأن لديه محاضرة تدريب لرسم مخططات القلب " ECG Training" سيحضرها ويعود، في الوقت الذي تصدر فيه صورة عينة الدم من المختبر، فشكرت له في نفسي أن منحني متلطفًا زيارة ريم وحدي دون رقيب يعرفني ويأخذ عليّ ما قد لا أتمالك نفسي لأخفيه.

ذهبت إليها، فأخبرتني الممرضة أنها ما زالت غائبة عن وعيها، وقد تستفيق في أي لحظة، فاستأذنتها معلنا بنبرتيّ وبنظرتيّ وبكل ما اتوتيت من تعبير ما أحمله من عشق وقلق لتلك الراقدة بلا حول ولا قوة، فابتسمت وتركتني أجلس في هدوء على الكرسي المجاور لسريريها، إلى أن..

استيقظت لأجد نفسي في المستشفى، ذهني يعمل وجسدي فارغ الشحن، بالكاد أستطيع أن أرفع ستار جفني عن بؤبؤ عيني، لأبصر آدم يجلس وحده على كرسي بجانب السرير الذي أنام عليه. كان يقاوم النعاس، مرهقا ووجهه ملئ بالإرهاق. الغريب، أني منذ سنتين يتكرر هذا المشهد في أحلامي، دون ظهور وجه من يجلس على الكرسي.

حاولت أن أحرك جسدي، لكن لم يمكنني ذلك؛ الشيء الذي بعث في نفسي الرعب. بدا لي أن المسألة هذه المرة مختلفة.. لقد فقدت الوعي أكثر من مرة هذا العام. آلام كثيرة حطمت رأسي وأهبطتها بالمسكنات التي ما عادت تنفع، حتى بدأت أدرك أن هناك شيئا حقيقيا أصابني منذ فترة، ولم يعد الأسبرين يطفئه، تجاهلي المستمر لما تقوله أمي عن اصفرار وجهي، عظامي التي أصابها الصدأ.. كل تلك الأعراض تذكرتها وتجمعت أمامي لتقول لي إن القادم أشد ألما؛ لكن.. لماذا الآن؟!

بجهد كبير تمكنت من الكلام. كان أول ما سألت آدم عنه، إن كان قد أخبر أحدًا أهلي. لم يسمعني أول مرة، فاضطررت أن أحرك ساقي لكي ينتبه أني قد أفقت. فز من مكانه بسرعة كمن ينقض على فريسة، وهتف والخوف في كلامه أعلى صخبًا من الكلام:

"الحمد لله إنك بخير، ما تتحركي لازمك راحة، الحمد لله انك بخير.. الحمد لله"

كررت السؤال الذي يشغلني، هل أخبر أحدًا أهلي.. أجابني بالنفي، فشكرت الله وطلبت منه ألا يخبر أحدًا.

كان خائفًا جدًا عليّ، هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أرى أحدًا يخاف عليّ لهذه الدرجة، التي تغتال أي مفردات على لسانه، في الوقت الذي تغدق عيناه عليّ الكلام. أردت ضمه لحضني بشدة.. أردت أن يعانقني ويداعب شعري.. أردت الأمان من التصاق أكتافه بأكتافي.

لم أتمكن إلا من كلمات قاتلت لتخرج، وقلت على طريقته:

آدم، يبدو "أني أحببتك أكثر مما ينبغي!"

رد مبتسمًا: يبدو أنك تجيدين تقمص شخصيتي، "وأنا سأحبك حتى التعب!"

ما أجمل وجوده إلى جانبي.. ما أجمل أن تجد من يشاطرك طريقتك، وأفكارك، ويحدثك بلغة الشغف التي تهواها...

كان يرسم على وجهه ابتسامة معدية، تجعلني أبتسم معه بشكل لا إرادي. طلب مني التوقف عن الكلام كي أرتاح، فوجدت نفسي أفرض شروطًا عليه مقابل صمتي. قلت له:

"آدم، احكيلي عن حياتك بغزة.."

لم يفارق الابتسامة شفتيه. رد بشكل يداري به خجله الذكوري:

"أنا أسوأ واحد يحكي عن حاله. وبعدين لوقت تاني، هلأ اعطيني فرصة أتغزل فيك.. بس بوعدك ابتداء من اليوم وطالع لحد ما تطلعي من المستشفى، لأكتب لك كل يوم فصل من حياتي وأبعته لك على البريد، على طريقة رسائل غسان كنفاني لغادة السمان. وإذا رجعت يومًا ما على غزة، وأجاني صاروخ طايش، انشريها على النت وحركات يعني. ها الحين راح أغنيلك.."

لم يعطني فرصة لأعترض على سيرة الموت التي أشار إليها، وبدأ مباشرة يغني لزياد الرحباني:

" بحبك بلا ولا شي، ولا فيه هالحب مصاري، ولا ممكن فيه ليرات، ولا ممكن فيه أراضي، ولا في مجوهرات، تعي نقعد بالفي.. مش لحدا هالفي...، حبيني وفكري شوي"

كان صوته شجيًا.. نقيًا.. رقيقًا، متجانسًا بشكل جميل.. الوجع فيه مشهود، شحنات الحب فيه جارفة، قنديل في عتمة اليأس سقط في قلبي كقنبلة موقوتة، مضغوطة بالحنين والحنان..

بينما كان آدم يغني، تنحنح صديقه محمد واقترب، وبادر بالاطمئنان على صحتي بالسؤال والابتسامة المصطنعة، التي تخفي خلفها سرًا ما. كانت عيناه ثابتة حين ابتسم، فأدركت تمامًا أن الأمر جلل، خاصة عندما استأذن وأخذ مني آدم...

آدم

ذهبت مع محمد إلى كافتيريا المستشفى، لكي أتناول شيئًا من الطعام أسند به عافيتي. كان محمد قد بدأ يفهم ماذا تعني ريم لي، لكن ليس إلى حد تخيل أن الأمر حقيقي لهذه الدرجة. لذا، بادر ببساطة بالحديث عن نتائج صورة الدم التي أخذها من الطبيب وبينت ارتفاعا كبيرا في خلايا الدم البيضاء غير الفاعلة، والتي زادت من مخاوف الطبيب من إصابة ريم بالسرطان.

كان يتكلم ببساطة مستفزة.. استكمل حديثه قائلا إنها قد لا تكون مصابة بالسرطان، فكل التحاليل التي أجرتها لا تجزم بإصابتها بالمرض، لذلك طلب الطبيب إجراء فحص لعينة من النخاع العظمي للكشف عن وجود خلايا سرطانية في جسدها، وعلى إثر ذلك سيتأكد من إصابتها بالسرطان من عدمه.

بطبيعة الحال لم أكن أفهم كثيرا مما قاله د. محمد. لكن لم تكن لدي مشكلة من سماعه إلى آخر المطاف، فقد اعتدت علي طريقته المتعبة في الكلام، فمنذ شاهدت معه المسلسل الطبي الأمريكي " **House M.D**" وأذناي مستعدتان لسماع حديثه التشريحي، الذي يتخلله شرح طبي لكل شيء، مهما كان بسيطًا أو معقدًا، حتى ولو كان عن أعراض تناول طبق فول من الشارع!

قلت له بحدة شديدة: " محمد، ممكن تشرحلي بالعربي اللي حكيته؟"

عدل جلسته، وأخذ في الكلام موضحًا لي أن هذه الإجراء قد يستغرق من أسبوع لأسبوعين، وخلال هذه الفترة ستظل متواجدة في المستشفى بحكم عدم وجود أحد من عائلتها يرعاها. قال: في الحقيقة نسبة أن تكون مصابة بالسرطان كبيرة جدًا.

ثم أنهى كلامه مستظرفًا: "الغسيل تبعك صار له يومين في الغسالة وريحة الحمام بتخنق، يا ريت حضرتك تروح تشيله من الغسالة"

في هذا الوقت، اتصلت سارة لتطمئن على وضع ريم، فأخبرتها بإيجاز ما حدث، وأكدت عليها ألا تخبر أحدًا من أهل ريم عن وجودها في المستشفى، وأن تتصل بهم تطمئنهم عليها. لكن صوتها بدا يترقرق عاجزًا عن توضيح شيء ما. سألتها عن ذلك، فصمتت قليلًا وقالت إن ليلى اتصلت بها وأنبأتها خبرًا سيئًا، فقد تزوج والد ريم وطلق أمها، وطلبت منها ليلى ألا تخبر ريم عن ذلك، وأن تحاول قدر المستطاع منعها من الحديث مع أمها، التي هي في الواقع في حالة يرثى لها!

شعرت بهذا الخبر أني أجلس وحيدًا تحت المطر على كرسي من حديد، يداي عاريتان تستندان إليه، في الوقت الذي أصاب البرق حديد الكرسي وصعق جسمي المبلل. هناك شخص في هذا العالم يعاني أكثر مني، ورغم ذلك ضحى لأجل أن يكون معي.. هناك شخص لن أتخلى عنه، حتى لو كلفني ذلك حياتي، بعيدًا عن أي مجاز.

ريم

شعرت بيده تداعب يدي، كمن يداعب فراء القطط. شعرت باهتزاز، وكأنني اتصلت بجهاز ينقل لجسدي مشاعر جديدة. قال بصوت يسبق الحزن: لدي خبران، الأول محزن والثاني ربما لا.

طلبت منه البدء بالأسوأ، فأخبرني أني سأضطر لأن أمكث أسبوعا أو أكثر في المستشفى، فسألته: وهل تظن أن لديك خبرًا مفرحًا بعد هذا الخبر؟

ابتسم، وامسك يديَّ بيديه الاثنتين وقبلهما. ثم قال: المفرح أن مكوثك في المستشفى سيمنحني وقتًا أطول لقضائه بجانبك.

كلامه أشبه بتعويذات سحرية، تأخذني وتحلق بي فوق السحاب.. ترفعني للأعلى، حيث في الأعلى كل شيء جميل.

حاول الاستفسار بطريقة غير مباشرة حول إذا ما كان لدي مرض مزمن أو خطير من قبل، فنفيت له ذلك، وأخبرته عن شعوري وعن أني لن أتفاجأ إذا ما اتضح أني أعاني من مرض خطير.

في الواقع، لازمتني هذه الشكوك، لكني على المستوى النفسي كنت جاهزة لأن يقولوا لي "لن يتبقى في عمرك الكثير". لن أحزن إذا ما قالوا ذلك.. سأقضي ما تبقى من عمري أطالع ملامح آدم، وأسمع صوته، وأجاريه في حديثه إلى حد التوحد فيه.

في غمرة هذا التفكير، قاطعني وقال:

سارة في طريقها إليك، سأتركك معها وأعود للبيت لأستحم وأخرج ملابسي التي قد تكون تعفنت في الغسالة، ثم سأنام قليلًا وأعود..

صمت برهة، ثم ابتسم كمن تذكر شيئا، وقال:

ولن أنسى كتابة فصل عن حياتي، وأرسله لك على طريقة غسان وغادة، مثلما اتفقنا.

ظل يقص علي بعض النكات، التي أشعلت قلبي ضحكًا وأملًا، رغم أني كنت في غرفة مليئة بالأسلاك، جدرانها كئيبة جدًا. إلا أنه إذا ما تكلم غدت الجدران قوس قزح.. أشعر معه كأني أجلس في حديقة مرصعة بأزهار الأوركيد والياسمين..

سألته: أين هديتي؟ أين زهرتي؟..

قال: من المفترض أنها الآن مع "لي ياني". سأتصل بسارة لكي تجلبها معها.

ابتسم وقال لي: حاضر يا سمو الأميرة..

يا ملكي ومليكي يا آدم.. يا عمري.. يا قدري.. يا حبيبي.. لا توجعني بغيابك يومًا، لا تختبر حبي، ولا تجهم جحافل صبري..

جاءت سارة وهي تحمل زهرة الأوركيد، فطلبت منها أن تضعها بجانبي. سارة، على الرغم من الغربة التي أهلكت شخصيتها، إلا أنها تملك قلبًا مرهفًا. كانت عيناها تشبه عيني ليلي، مغرورقة بالحب

والعاطفة. أكدت عليها ألا تخبر أحدًا من أهلي، وأن تتواصل معهم تطمئنهم على حالي، وتتحجج لهم بأي طريقة كي لا أكلمهم، إلى أن يسترد صوتي عافيته.

حددوا موعدًا، وأخذوني لغرفة العمليات، ليأخذوا خزعة من نخاعي العظمي، لإجراء فحص يثبتوا به لي صحة إحساسي. لم أكن لأمانع أي شيء.. فقط كنت سعيدة بوجود آدم بجانبي يومًا بعد يومًا، أرى وجودي في المستشفى من بوادر الحظ الجميل، فأنا مع آدم تقريبًا طوال اليوم، ولو لم أدخل المستشفى لما كان بمقدوري إلا أن أراه ساعة أو ساعتين على أقصى تقدير بين كل يوم والآخر..

ولأنه لا فرح يدوم، فبعد مرور أسبوع ونصف على أجمل القبلات المسروقة، التي كان يطبعها آدم على خدي وعلى شفتي دون أن يرانا أحد، جاء الطبيب يطلعني على موافقة القدر على إعدامي بالسرطان. كنت مصابة باللوكيميا، والمرض أكل مناعتي له تماما، ويجب أن أخضع للعلاج الذي قد يؤجل موتي قليلًا. لقد دمر إدماني للأسبرين فرصتي أمام السرطان، وأخرني كثيرًا، والآن وقد أطلعني الطبيب على ضرورة امتثالي للعلاج الكيماوي، أسأل نفسي ما الفرق بين أن يخبرك الطبيبُ بإصابتك بالسرطان، وبين أن يحكم عليك القاضي بالإعدام؟ الفرق أن المحكوم بالإعدام يستطيع الصراخ معترضًا على حكم القاضي، أما قدر السرطان فلا اعتراض فيه على مشيئة الله.

كنت بحاجة للكثير لأستطيع التعايش مع فكرة إصابتي بالمرض. عشت توليفة من الأحاسيس والأماني المدمرة، أترنح ما بين الضيق

والاكتئاب، أتقوقع في الغم والهم، وأحس برعشة وآلام في مختلف أنحاء جسمي.. كنت أسمع ضربات قلبي كأجراس الكُنائس، ومع ذلك اليوم، بدأت حفلات الكوابيس الثقيلة تزور نومي المضطرب يوميًا.

أذكر سؤال الطبيب حين قال:

يبدو أنك مصابة بالسرطان منذ فترة طويلة، وملفك مذكور فيه أنك مطلقة، وهذا ما جعل لدي شكوك في شأن إصابتك بالمرض، هل لي بسؤالك عن تاريخ زواجك؟

أجبته بأني كنت متزوجة منذ شهور قليلة، وتطلقت بعد فترة قصيرة. كنت أتحدث إليه بتهم، لا أدري لماذا، لكني توقعت شيئًا سيئًا خلف السؤال. رسم جوابي على وجهه علامات تعجب قوية جدًا، فلم أتمكن من كبت فضولي وسألته لماذا، فقال:

من المفترض بنتائج فحص الزواج التي أجريتها أن تشير بشكل ما إلى إصابتك بالسرطان، أو على الأقل أن تثير بعض الشكوك عند الطبيب..

يا الله !..

أخي غانم،.. أخي غانم.. غانم.. غانم..

ظلت أردد اسمه بوجعٍ شديد. فقد فهمت أخيرًا لماذا أصر على عودتي دونه مع "الشوفير" إلى البيت. أخيرًا فهمت لماذا ظل مع صديقه الدكتور، الذي زوَّر نتائج التحاليل، والآن أدركت لماذا كان يريدني تقبيل رأس طليقي بعدما أهان شرفي.

تشرذمت أفكاري، واختلط حابل الوجع بنابل العجز والحيرة. صار المجهول أمامي أكثر وضوحًا بسواده. حتى وإن كان هناك أمل في الحد من قسوة المرض، كيف لي إقحام آدم في حياتي بعد الآن؟ استسلامي يعني إنقاذ آدم من الغرق في حياتي السخيفة.. امرأة بلا معنى أنا، وبلا سند.. امرأة لا تقوى على جر جسدها أنا.. لن يعود بمقدوري تسريح شعري.. لن يكون وقوفي أمام المرآة إلا ضربًا من ضروب الألم.. لن أفرق بين ثقل رأسي والنعاس. لا يجب على أنفي المتعطشة للحب أن تدس نفسها في حياة رجل بريء؛ يكفي ما سببته من ألم لرجل كان يشبهه. سأرفض العلاج الكيماوي، وأعود أستعجل الموت في بلادي. الرحيل الآن هو الخلاص بأقل الخسائر الروحية.

لماذا دائمًا أقفز عن كل مصيبة يرتكبها غانم بحقي؟ واهم من يظن أن الدم لا يغدو ماء! لا شيء في يدي أفعله حياله، ولو كان أيضًا في يدي فعل شيء، ما فعلته.

رفعت عن صمتي تجاه كل ما يخالجني عن غانم. حدثت سارة في الأمر، والتي هي بالأصل لا تتقبل شخصيته وتمقته لأبعد حد. أغضبتها بشدة تصرفاته، وخصوصًا إخفاؤه حقيقة مرضي باللوكيميا، فأضاع فرص استشفائي بقلب بارد. طلبت منها إخبار أهلي بما جد عن حالتي الصحية، وبرغبتي بالعودة إلى بلادي. تبدل وجهها وحاولت إخفاء توترها –المفضوح رغما عنها– خلف تمنيات الشفاء والكلام الخارج عن سياق الحدث.

قسم قلبي نصل مصيبة جديدة.. أنا أعرفهم كلهم.. أعرف وجوه أولئك الذين يحاولون إخفاء خبر سيء.. ملامحهم مفضوحة لي، فلا

أدري لماذا التسويف في إطلاق نار الحقيقة من أول مرة، ما دامت موجعة بشكل لا يخف مع الوقت.

رفضت سارة البوح بشيء، فأصررت حتى البكاء. قلبت وجهها، بمحاولة خائبة لتغير الموضوع، لكنها أمام إلحاحي لم تصمد، وتقيأت الكلام دفعة واحد:

"ريم، أبوكي طلق إمك، وأختك قاعدة في البيت مع أخوك لحالها"

اتسعت حدقة عيني لأقصى مداها، وشعرت بهزة نفسية قوية غلبت كل معاناتي الماضية.. اضطربت أنفاسي، وقدماي ويدي.. أنا لا أملك أي إمكانيات نفسية لأواجه كل هذا. لقد شوه هذا الخبر فهمي لنفسي وللحياة. هذه الصدمة بمثابة ميلاد عجزي واستسلامي المعلن.. بدأت أستعجل الموت ليخلصني.

مع حالة اليأس المطلق، لم أنطق حرفًا على مدار أسبوع. حتى آدم، كان يفعل المستحيل ليخرجني من ذلك الحال، يطلب مني ألا أيأس أبدًا.. يقول:

يجب أن تكوني بخير، لتقومي بقراءة رسائلي التي بدأت أكتبها إليك.

ثم يردف قائلًا:

كتبت لك عن مأساة حبي الأول، وعن مذكراتي، كما لو أني أكتب لنفسي لا ليقرأها أحد.. أريدك أن تستعيدي عافيتك، وأريدك أن تعرفي كل شيء عن حياتي في السابق.

آه يا آدم.. حتى في هذا شابهتني! في مأساة الحب الأول.. كم تشبهني وأشبهك..

كنت في وعيي تماما، أحفظ كل ما يدور حولي، وأذكر كل شيء بالتفصيل. لكني لم أكن ،تكلم سوى بكلمات بسيطة، كي لا يعتقد أحد أني فقدت النطق. علم آدم أني طلبت من سارة أن تخبر أهلي بكل شيء، وعن نيتي في العودة. حاول أن يقنعني بالخضوع للعلاج الكيماوي في مصر، حتى أنه فاجأني مرة بحلاقة شعره بالكامل، كي يشجعني على قبول العلاج. حزنت جدًا لما فعل، فقد كان شعري آخر همي في تلك الأيام.. لقد أردت الموت بشدة.

أيام أخرى مرت على هذه الحالة الساكنة التي أعيشها، كدرت فيها حياة آدم، الذي لم يتأخر لحظة عن التواجد معي. في أحد تلك الأيام الحزينة، وبعدما أزاح الصباح حجاب الليل عن وجهه، اتصل والدي ليخبرني بأنه سيرسل طبيبا ليطلع على حالتي. كانت سارة قد أخبرت والدها بحالتي، ولم تكتف بذلك، بل أشارت أيضًا لحقيقة معرفة غانم بمرضي. وبدوره، قام أبوها بشرح كل شيء لأبي. علمت بعدها أن أبي طرد غانم على إثر ذلك، وعادت ليلى لتعيش في منزل أبي، فأثقل كاهلي كل ذلك، فها أنا الآن أتسبب بالمشاكل لغيري.. كل كارثة تنطلق مني، ولا قوة لي في ذلك.

عند ظهر أحد الأيام، جاء الطبيب الذي أخبرني عنه والدي، ليختبر حقيقة وضعي، وإلى أي مرحلة وصل انتشار المرض في جسدي. كان أن فحص حالتي مع الطبيب القائم على علاجي،

وأطلعه الطبيب على كل ما يخص مرضي. بعد ذلك قام ذاك الطبيب المرسل من والدي بالاتصال به وإخباره بوضعي الصحي، وطلب منه شيئًا اضطرني للمكوث في مصر لأسبوعين آخرين..

اتضح لي بعد ذلك أنه قد طلب من والدي أن يقوم أحد أفراد عائلتي بإجراء فحص دم بسيط للتأكد من ملائمة تطابق الأنسجة، وبعض الفحوصات والاختبارات الأخرى، والتي عادة ما تطلب من الأهل في مثل الحالة التي واجهتني مع اللوكيميا. حسبما فهمت، هناك أمل في علاجي من خلال عملية زرع النخاع العظمي، والتي تعتمد على زراعة خلايا جذعية سليمة في النخاع العظمي بدلًا من المصابة، وفي العادة تؤخذ تلك الخلايا من أحد الأقارب، الذي يتوافق أن لديه ملائمة لأنسجته مع المريض، وبعض الشروط الأخرى التي لم أفهمها. أجبرني أبي على الخضوع لعلاج كيماوي بإشراف الطبيب الذي أرسله، في إطار التحضير للعملية. وعرفت أن ليلى أختي هي الوحيدة التي توافقت معها تلك الشروط.

لم يكن باستطاعتي رؤية آدم كما كان في البداية، فقد أرسل والدي جنوده ليراقبوني من جديد. مرت الأيام على هذا الحال، الذي اكتست فيه حياتي الكآبة من كل صوب، إلى أن أخبرني والدي بأنه قد حجز لي و لليلى رحلة إلى ألمانيا، لإجراء عملية زرع النخاع العظمي هناك. ليس ذلك وحسب، بل لقد اشترى لنا بيتًا، وحصّل لنا قبولا جامعي أيضًا للدراسة هناك. بشكل آخر، لقد أسس لنا حياة هناك بعيدًا عن حياته، كي يتجلى مع زوجته الجديدة.

لم يكن طرده لغانم بسبب إخفاء غانم إصابتي بالسرطان وحسب، بل كان السبب الأساسي في ذلك رغبته من التخلص من مسؤولياته تجاهه. غانم يشبه والدي كثيرًا، وهما كالمغناطيس، كل قطبين متشابهين متنافران.

لقد خسرت آدم قبل أن أربحه. فمنذ اليوم الذي زارني فيه الطبيب المرسل وأنا لا أتواصل معه إلا عبر الرسائل، وأحيانًا ألقاه خلسة، بعد تخطيط مضني بالتواطؤ مع سارة، للتحايل على جنود أبي الذي يتخفون في زي خدمة راحتي!

آدم كان يتعذب.. كنت أشعر أن رسائله تقطر دموعًا، وأنا كنت أذوب شوقًا لقبلته المسروقة على شفتي. لقد كانت تلك الطريقة الوحيدة التي يشعر بها جسدي أنه على قيد الحياة. حين علم عن موعد سفري لألمانيا، أرسل أكثر من مئة رسالة يرجوني بها أن أجد حلًا آخر غير السفر. لم أجب على أي رسالة منها، في الوقت الذي كنت أتقطع لأفعل ذلك، لكني لم أرغب أن أوجعه أكثر. لم يكف عن تذكيري بالرسائل التي يرسلها لي بشكل يومي، والتي يقص بها سيرة حياته. كان ذلك يحرقني ويؤلمني أشد الألم، فآدم وهو ليس معي يفكر بي ويفعل ذلك لأجلي!

كنت متألمة جدًا، لأجله ولأجلي ولأجل أختي وأمي.. كنت أشعر بالهزيمة والفشل والانهيار.. صرت أقرب للتصحر الوجداني، أبكي بلا سبب، وأحيانا تنهمر دموعي وحدها دون تدخل مني، أشعر شيئًا فشيئا بضرورة انسحابي من الحياة.. كنت أقرأ رسائل الهاتف التي

يرجوني بها وأبكي.. لم أحاول أن أتفقد رسائل البريد التي يرسلها، لأني كنت بحاجة لأهرب منه، لا أن أقترب.

قام والدي بتغيير موعد رحلة الطيران إلى ألمانيا، صارت أقرب يومين عما كانت. لم أخبر آدم كي لا أوجعه، أعلم كم كنت حقيرة في ذلك، فأنا لم أسمح له حتى بأن يودعني. لم أعطه حق الأمنية الأخيرة للمحكوم عليه بإعدام قلبه. وحين كنت في صالة الانتظار في مطار القاهرة الدولي، كتبت رسالة لآدم، اعتذرت فيها منه عن كل ما بدر مني، وتمنيت له التوفيق. كانت رسالة رسمية، تعكس مدى تخثر قلبي أو ربما تصحره. لا يحق لي أبدًا أني أنهي علاقتي معه بهذه الطريقة الفجة، لا يحق لي أن أفعل ذلك مع الرجل الذي كان مستعدًا لأن يسبح في المستحيل ليظل قربي. لكني لم أقل له في أي محيط أعيش...

رد برسالة قبل أن أغلق هاتفي وأحذف الشريحة:

"راح ألحقك على ألمانيا، راح ألحقك على آخر الدنيا، استنيني وكوني قوية، أنا بحبك"

أدم

كفيفٌ لا أبصر الأيام أمامي.. أصمّ لحدود الهذيانِ.. همزة وقعت من سطحِ الألف، وحاء انحنت ضريحة على أرضِ الغيابِ، باء سقطت نقطتها في الوحل، كاف نامت على كفها..

" أمس انتهينا فلا كنا و لا كان، يا صاحب الوعد خلّ الوعد نسيان"

صوت فيروز ملجأ السُعداء والحزانى.. صوت فيروز صديقٌ، لا يعرف التخلي مهما انحلت الأزمان.. صوت العتاب الذي يهذب القلوب. هذا اليوم، بحة فيروز تشعر بشيء من الوجع مثلي.

كنت أظن أن حياتي بدأت في النجاح، حين وجدت لي طريقًا في درب الكتابة، وعثرت على حب يملأ قلبي، لكن لا تفرحي يا أمي اليتيمة إلا من دعاء قلبي.. أنا ما إن نجحت في شيء في حياتي، فما هو إلا من قبيل المحاولة والمصادفة، لا شيء مما أحب تحقق، وكل ما حولي شبق الوهم.

إن الضياع هو أن تفكر بكل ما مر في حياتك بطريقة فوضوية تنحدر من أزمنة مختلفة، تكتشف من خلالها حجم المأساة التي عايشتها، وقد تكتشف أنك كنت سعيدًا لأشياء لا تستحق الفرح.. أشياء لا تعني لك شيئًا.. وعلى إثر ذلك، تفقد حقيقة وجود السعادة من جذورها..

حظي له فمّ مثل باقي المخلوقات، يمضغ العلكة حين يمارس ساديته ضدي، ويشرب السيجار بعد تعذيبي، وإذا هربت يلحقُني ويبصق في وجهي. ثمة خلل في حياتي.. أرى قمة السعادة في أيام معدودة، وأفقدها فيما تبقى من العمر. الكآبة التي أعيشها لا أفهمها، تأخذني لأبعد حزن، وتطرقني في سابع أرض. تذكرت دموع أمي التي رضعتها مصادفة بدلا من الحليب، حين لم تفرق بين نهدها وعينها. أمي توفت بالسرطان، ذلك الوحش الأسطوري الذي يخطف منا كل مُحب..

الأيام مرت، واستفحلت الأوجاع أكثر. قرأت رسالة ريم الأخيرة عشرات المرات. كان قدري أن تعذبني حروفها الأخيرة.. لقد حاولت تعذيبها عن عمد بهذا الأسلوب من قبل، وها هي توجعني بنفس الطريقة، لكن بغير قصد. لم أحب يومًا الكتابة المازوشية، ولا أريد التورط في البكاء على الأطلال، لذا قضيت أيامي بعد رحيل ريم أقاتل اليأس، حتى وصلت للغثيان من أي أغنية حزينة.

في بعض الأحيان، نختبر محبة الأحبة في بعدنا عنهم.. ننتظر شوقهم بفارغ الصبر، لنتأكد لنا محبتهم، والتي لا يجوز الشك بها. لذا، أقنعت نفسي بأن غيابها اختبار من القدر، ولا مجال إلا أن أثابر في ذلك، فأنا على كلتا الحالتين هالك..

مرت الأيام، ورسائلي إليها لم تتوقف. كنت أتلصص على أخبارها من سارة.. علمت أنها ستجري عملية زراعة النخاع العظمي في مستشفى "شتوتجارت" في ألمانيا، وأن نسبة نجاح العملية عالية

جدًا، وقد يكون لها آثار جانبية طفيفة، لكن يمكن علاجها بسهولة بعد ذلك. ذلك كان مطمئنًا كثيرًا بالنسبة لي.

ريم لم تجب على أي من رسائلي، إلا قبل العملية بأيام. قالت في رسالتها الأخيرة:

"باتمنى تسامحني ما في شي بايدي، أنا راح أعمل العملية وحياتي آخر همي، ادعيلي إن فشلت أموت بسرعة، ما بدي أتعذب وأنا عايشة.. بحبك"

أشعلت حروف تلك الرسالة الحزينة النار في قلبي، قلبت مشاعري رأسًا على عقب.. أردت أن أكون بجانبها جدًا. ماذا عساي أن أفعل، وجواز سفري بالكاد يستطيع أن يسمح لي بالتنقل من فلسطين إلى مصر؟.. إن استخراج فيزا للسفر إلى أيٍ من الدول الأوربية يقع في نطاق المستحيل؛ شروط الفيزا بالنسبة للفلسطيني، وخصوصًا إن كان من مواليد غزة، قد لا أبالغ إن وصفتها بالانتحار.

لكن أنا عزمت على السفر، ولا شيء ليمنعني عن ذلك. كان لدي بعض من المال ادخرته من عملي مؤخرًا، وبما أن السفر قانونيًا إلى أوروبا ضربًا من المستحيل، فقد فكرت بطريقة أخرى.

كنت أعرف بعض الأصدقاء السوريين، الذين جاؤوا من سوريا للعيش في مصر بعد الأزمة السورية، التي بدأت في مطلع عام 2011، و كان أغلبهم يفكر بالهجرة غير الشرعية لأوروبا. الطرق المطروحة إما السفر بجواز سفر لشخص يشبهني، أو من خلال أوراق

مزورة تصدر في اليونان، أو عن طريق البحر من الإسكندرية أو من ليبيا..

لم أكن محظوظًا لأختار بينهم، فلم يكن بمقدوري الهروب إلا عن طريق مركب يخرج من الإسكندرية، وقد كان ذلك القرار من أغبى القرارات التي اتخذتها في حياتي على الإطلاق. لقد وضعت حياتي رهن أناس يتاجرون بأرواح البشر. كنت أعلم جيدًا أني مقبل على طريق أشد رعبًا من الموت نفسًا..

خالجتني كوابيس كثيرة، أهبطت عزيمتي وجعلتني أتردد كثيرًا في استكمال ما انتويته، لكن أصدقائي الذين أعرفهم شجعوني على تمامه. كنا نتعامل مع الحياة كأضحوكة، ونرى الموت أهون من التفكير بمستقبلنا المظلم، الذي شوهت السياسة معالمه كليًا. لم يكن بمقدورنا التعامل مع المهرب مباشرة، كي لا يبلغ أحد منا عنه، لذا كان كل تعاملنا من خلال سمسار سوري وسيط بيننا وبين المهرب.

كنت أقضى كل وقتي مع أصدقائي، الذين سيخوضون معي غمار الهروب إلى أوروبا، كي لا أفكر في التراجع أبدًا، ومنذ سلمت السمسار نصف المبلغ، أتحاشى أن أكون وحدي، لأني كنت سأتراجع نهائيا لو نصحني أحد بذلك، فكنت أهرب من أولئك الناصحين..

قبل يومين من ذهابي للإسكندرية، كتبت لريم رسالة عادية. لم أرغب في أثير فزعها، أو أجعلها تشعر بالذنب إذا ما حصل مكروه لي. قلت لها إنني أنتظر صدور الفيزا لأكون بقربك، سأكمل دراستي في ألمانيا، وهكذا أستطيع أن أكون معك للأبد، انتظريني..

ثم كتبت في ذيل الرسالة: قصتي معك تستحق أن تكون رواية.. لذا، إذا لم أتمكن من كتابتها يومًا، اكتبيها أنت كأنك أنا، فحديثك يشبهني..

كانت هذه الكلمات آخر ما أرسلتُه لريم، بعدما أرهقت صندوق بريدها بالرسائل، وقصصت عليها ذكرياتي والأحداث التي عايشتها بجميع تفاصيلها، حتى أنني لم أخجل من ذكر قصتي مع شهد.. أقصد قصة حبي الأول لشهد..

أثناء سهرتنا في أحد المقاهي، حيث كنا نلعب "طرنيب"، اتصل السمسار ليخبرنا بموعد انطلاق الرحلة (غدًا) وعلينا أن نغادر مدينة أكتوبر ونتوجه إلى الإسكندرية بعد ثلاث (ساعات)!.. جميعًا كنا قد جهزنا مسبقًا أغراضنا، وفي انتظار تلك اللحظة. لم نكن نعلم موعد الرحلة مسبقًا لاعتبارات تتعلق بجهة التهريب. إحساس عجيب يحتوي قلبك مع موعد كهذا يحين!

وصلنا الساعة الرابعة صباحًا، وكل منا يحمل شنطة صغيرة بها بعض الأوراق، وتمر، وبعض الأدوية خاصة بدوار البحر، وحبوب مغذية. استقبلنا أحد المنسقين لموضوع الرحلة في الإسكندرية، وأقمنا جميعًا في شقة ممتلئة بالناس من مختلف الجنسيات. وهناك، تعرفت على فلسطيني كان يعمل في الخليج، ولكن تم ترحيله لأسباب رفض أن يطلعني عليها.. بقينا في تلك الشقة لمدة يومين، إلى أن جاء اتصال آخر من المهرب، وطلب منا أن ننزل في أحد منتزهات الإسكندرية، وأكد على كل منا ألا يحمل شيئًا معه. ذهبنا كل أربع أشخاص معا

حتى لا نثير الشكوك، وهناك استقبلنا البعض بكلمة سر، وأجلسونا في أماكن معينة، وأجبروا كل شخص على ترك أي شيء كان يحمله. كان منظرنا ملفتا جدًا، لدرجة أشعلت المنطقة حولنا توترًا، خصوصا بعدما وصلت ثلاثة مراكب علنا على شاطئ البحر. أنا والشاب الفلسطيني واثنان من أصدقائي السوريين ركضنا نحو الماء، وسبحنا إلى أن وصلنا لأحد المراكب. لم يكن أحد منا يجرؤ على النظر خلفه، وانطلق بنا المركب بسرعة بعدما داهمت الشرطة الشاطئ.

لم أنظر خلفي أبدًا. كانت تلك اللحظات الأكثر رعبًا في حياتي. سمعت بعد ذلك إطلاق النار، فأغمضت عيني وقرأت الفاتحة، وبدأت في التشهد! كان الموج عاليا جدًا، والمركب يسير بأقصى سرعة. لم أفتح عيني لأكثر من ساعتين، متشبثا بصديقي الفلسطيني. لقد كنت أكثر الموجودين على المركب جبنًا ورعبًا.

لم تكن حياتي سيئة لهذا الحد الذي يجبرني لسلوك تصرف مثل هذا. كنت أخبئ في ملابسي الداخلية بعض الأدوية ومبلغ 500 دولار، ودفتر بقلم صغير. بعد أن دخلنا في عمق البحر، وغرق واحد من الذين كانوا معنا، جاء مركب خشبي آخر، يبلغ طوله تقريبا خمسة عشر مترا، وعرضه أربعة أمتار. وكان أي شخص يمتلك هاتفا يصادر منه، كي لا يكتشف خفر السواحل مكان المركب، وخصوصًا بعدما أبلغنا قائده بأن هناك جندي قد أصيب أثناء مطاردة باقي المراكب الصغيرة، التي تجمّع الناس في هذا المركب، الذي كان ينتظرنا في منتصف البحر.

كان هناك كثير من الأشخاص في ذلك المركب الخشبي، قد وصلوا قبلنا، ولا أعلم صراحة من أي نقطة تم تجميعهم، فقد وصل عددنا لما يقارب **80** شخصا!.. الموج عال، والبرد قارس جدا، وقدماي لا أشعر بهما، وقد جلسنا بجانب بعضنا البعض، وتماسكنا جيدًا لمجابهة تقلب المركب مع الأمواج. لم يسمح طاقم المركب لأحد أن ينام في تلك اللحظات، حتى لا يتشكل خطرًا على حياته. علمنا بعد ذلك أن من تبقى في الشقة ومن لم يلحق بنا تم القبض عليهم. مر يومان على وجودنا على المركب الخشبي كانا أسوأ أيام حياتي. قبل أن يجئ مركب معدني آخر، أضخم من الأول، طوله تقريبا **25** متر وعرضه **6** أمتار، بدأ الناس يقفزون من المركب الخشبي إليه في وسط البحر، والأمواج تتسبب في اصطدام المركبين، حتى ماتت على إثر ذلك امرأة، وأصيب الكثير بالكسور، خلال القفز من مركب لآخر، فلم يكن هناك أكثر من عشر ثوان ليقفز أحدنا إلى المركب الحديدي ويسحبه أحد عليه. هكذا، حتى صرت على المركب الذي سيتوجه للمياه الإيطالية. بدأت المعاناة الصحية، الكل يتقيأ ويتبول، وكان المركب مقرفًا جدًا، والناس تنام فوق بعضها البعض بملابسهم المبللة بمياه البحر والبول!

بقينا في هذا المركب الحديدي لا نتحرك لأكثر من ثلاثة أيام، حتى انطلق بعدما امتلأ بالناس، الذين جاؤوا من أكثر من مركب خشبي كالذي كنا فيه. كنا نتناول طعامًا مقرفًا، يوزعه علينا بالتساوي طاقم المركب. خرجنا من المياه المصرية ودخلنا المياه الإقليمية الأوروبية في عتمة البحر ورهبة الظروف، حيث لم أر اليابسة لأيام. كنت أشعر أني

انتهيت بالفعل. لم أثق بأني قادر على أن أعيش أكثر. كنت أتقيأ الطعام الذي يطعمونه لنا، وأعتمد كليًا على الحبوب التي كنت أخبئها داخل ملابسي الداخلية.

تعطل المركب معنا ونحن في المياه الدولية، وأخبرنا القبطان أن مركب سيأتي من ليبيا لإجراءات التصليح. تصاحبت جيدًا مع الشاب الفلسطيني، الذي أنقذني بحبات التمر الذي كان يخبئها داخل ملابسه.

ظللنا ننتظر المركب لثلاثة أيام، كتبت فيها ما حصل معي في رحلة الموت هذه. لاحظ صديقي الفلسطيني أني منغمس بالكتابة، وأحس بكآبتي وبؤسي وقرفي، ورويت له قصتي، وتمنيت عليه إن أصابني مكروه ولم أصل، أن يأخذ كتاباتي ويعطيها لريم، وأعطيت له اسم المستشفى التي تجري بها العملية، ومعلومات الاتصال بها من خلال الإنترنت.

يا قلبي يا ريم، ما الذي فعلته بحياتي.. أدرك أنك ابتعدت لتحميني، وأنا اقتربت لأحترق. أنا آسف جدًا على كل شيء، أعتذر لك ولحياتي التي رخصتها لهذا الحد..

كنت أكتب لريم بنهم، وأُعلّم بعض كتاباتي بالملاحظات.. أضع خطًا تحت بعض الأشياء، وأكتب شذرة بجانبها، هذه خاصة لا تنشريها في كتابنا!

بدأت أشعر بتهالك صحتي. كان الإرهاق يشتد بشكل كبير، لكنه لم يمنعني عن الكتابة. كنت أحس بالدوار والغثيان، وبين كل فترة وفترة أتقيأ. لم أستطع أن أعبر جيدًا عما في خاطري على الورق.

أشعر بتضارب ما بين وعيي وقلبي مع مخيلتي. بدأت أدرك أن قدري يتخلى عني كلما ابتعدت عن أرضي، حتى كنت أتمنى لو أني لم أجازف بهذا القرار.

وصل مركب صغير من ليبيا إلى مركبنا، ونزل شخصان من على متنه، وقاموا بإصلاح المحرك. من ثم تحركنا من جديد، وفي كل موجة عالية تضربنا قصة معاناة وصراع للبقاء. فقدنا الكثير منا، لا أعلم إذا ما كان العالم يعرف شيئًا عن أولئك الذي يبلعهم البحر. ونحن على الأرض، نتصفح ملفات اللاجئين في أوروبا، نقرأ فقط أخبار العشرات الذين استطاعوا الوصول لهناك، ولا نعرف شيئًا عن الآلاف الذين يموتون غرقًا، أو على إثر صراع ينشب على المركب، أو ربما تسمم أو جرب.. أسباب الموت في مثل هذه الحالات عديدة.

في أحد تلك الأيام المشؤومة، بعدما غادر المركب الصغير الذي جاء لإصلاح محرك مركبنا، هاجمنا مركب أسود جاء من حيث لا أدري. كان يحمل أشخاصا مسلحين، وقد أطلقوا علينا النار، وقُتل في ذلك ثلاثة أشخاص وأصيب العديد. وقد كنت أنا من أولئك المصابين، فقد استقرت رصاص في فخذي..

اتضح لنا لاحقًا أن هؤلاء الأشخاص عصابة، هاجمتنا كي تضارب على السمسار الذي نظم هذه الرحلة لنا، فبعد أن أطلقوا النار علينا هربوا بسرعة البرق. أنا لم أكن أشعر بوجع الرصاصة حين اخترقت جسدي، لكن في اليوم الثاني بدأت أتوجع كما لم أتوجع من قبل. وقد أصابني الفزع المطلق، حين قام طاقم المركب بقذف جثث الأشخاص الذين ماتوا في البحر!

لا أدري يا ريم إذا كان بإمكاني الكتابة أكثر من ذلك، لكن الورق بين يدي امتلأ، وصحتي فرغت، وها أنا أحفظ هذه الأوراق مع صديقي، الذي آمل أن يوصلها لك. وفي حالة وصل الورق إليك قبلي، فترحمي على روحي، وادعي الله أن يغفر لي.

محبك

آدم!